تأملات إيمانية في

قصة الثلاثة الذين خلفوا

فضيلة الشيخ الدكتور

ياسر برهامي

توزيع

دار الفتح الإسلامي

دار الخلفاء الراشدين

حقوق الطبع محفوظة

تأملات إيمانية في قصة الثلاثة الذين خلفوا
الدكتور/ ياسر برهامي
١٧×١٢ سم
١٧٦ صفحة
مجلد واحد
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م
الأولى

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
الإسكندرية أبو سليمان ش عمر أمام مسجد الخلفاء الراشدين
الإدارة: ٠١٠٠٦٧١٤٧٦٨ - المبيعات: ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب].

أما بعد:

فإن قصة الثلاثة الذين خلفوا ثم تاب الله عليهم وباسم

التوبة عليهم سميت سورة براءة سورة التوبة لقصة بليغة عظيمة الفوائد يتوقف المرء عندها في معرفة حكمة الله البالغة وتقليبه القلوب فإذا لم تؤمن الفتنة على من شهد بدرًا ومن شهد بيعة العقبة اللتان بهما قامت دولة الإسلام وفي عنق كل مسلم لكل واحد ممن شهدهم يد ومنة لأنهم بفضل الله سبحانه ومنته كانوا سببًا في إسلامنا فكيف تؤمن الفتنة على من بعدهم، فاللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك.

والارتباط الوثيق بين الأعمال بعضها ببعض فالصدق منجاة وسبب لتوبة الله على عبده والكذب سبب لهلاكه ولو كان مع استغفار رسول الله ﷺ.

ولقد وقعت القصة لثلاثة لكن ساقها السياق الرائع والعرض المبهر واحد منهم دون صاحبيه كعب بن مالك رضي الله عنهم جميعًا وهو الأديب الشاعر الذي أوتي جدلًا فأخذ سياقه بالقلوب وجذبها إلى أنواع من العلوم والأعمال لم تكن لتنتبه إليها - بعد فضل الله - دون هذا السياق الإيماني التربوي.

وهذه تأملات نرجوا الله قبولها في فوائد هذه القصة العظيمة أسأل الله أن ينفع بها كاتبها وقارئها ومن أعان على طبعها ونشرها في الدنيا والآخرة.

كتبه

ياسر برهامي

الاسكندرية في ٢٦ من صفر ١٤٣٦هـ

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١١٢٠٠٤٦٤٦

ذكر القصة في القرآن

قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

ذكر كعب بن مالك لقصة الثلاثة

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب ابن إبراهيم، حدثنا ابن أخي الزهري محمد بن عبد الله، عن عمه محمد بن مسلم الزهري، أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله ابن كعب بن مالك، أن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه[1]، حين عَمي قال: سمعت كعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يحدّث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك.

فقال كعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غيرها[2] قط إلا في غزاة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر، ولم يُعاتَب أحدٌ تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عِير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد، ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا[3] على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن

(١) في بعض النسخ «بيته».
(٢) في بعض النسخ «غزاها».
(٣) في بعض النسخ «توافقنا».

كانت بدر أذْكَر في الناس منها وأشهر.

وكان من خبري حين تخلفتُ عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلّفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعتُ قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة، وكان رسول الله ﷺ قَلَّما يريد غزوة يغزوها إلا وَرّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حَرٍّ شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا، واستقبل عدوًا كثيرًا فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وَجْهَه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتابٌ حافظ - يريد: الديوان - فقال كعب رضي الله عنه: فَقَلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه، ما لم ينزل فيه وحي من الله ﷻ.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال وأنا إليها أصعر، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض من جهازي شيئًا، فأقول لنفسي: أنا قادرٌ على ذلك إذا أردتُ،

فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمَّر بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا، والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئًا، وقلت: أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه، فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض من جهازي شيئًا.

ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئًا، فلم يزل ذلك يَتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممتُ أن أرتحل فألحقهم وليت أنّي فعلتُ ثم لم يقدر ذلك لي، فطفقتُ إذا خرجتُ في الناس بعد رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى إلا رجلًا مَغْموصًا عليه في النفاق، أو رجلًا ممن عذره الله ﷻ ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالسٌ في القوم بتبوك: «**ما فعل كعب بن مالك؟**».

فقال رجل من بني سَلمة: حبسه يا رسول الله بُرْداه، والنظر في عَطْفيه.

فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: بئسما قلتَ! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا! فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك رضي الله عنه: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد

تَوجَّـه قافلًا من تبـوك حضرني بَثّي فطفقـت أتذكر[1] الكَذب، وأقـول: بماذا أخرج من سـخطه غدًا؟ أسـتعين على ذلك كلّ ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلّ قادمًا، زاح عني الباطل وعرفت أني لم أنج منه بشـيء أبدًا، فأجمعتُ صدقه.

وصَبَّح رسول الله ﷺ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلـى ركعتيـن، ثـم جلـس للنـاس، فلمـا فعـل ذلـك جاءه المتخلفـون فطفقوا يعتـذرون إليه ويحلفون لـه وكانوا بضعة وثمانين رجلًا فيقبل منهم رسـول الله ﷺ علانيتهم ويسـتغفر لهـم، ويكل سـرائرهم إلـى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حتـى جئتُ فلما سـلَّمت عليه تبسـم تبسـم المغضـب، ثم قـال لـي: «**تعال**»، فجئت أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «**ما خلَّفك، ألم تكن قد اشـتريت ظهرًا**»؟ فقلت: يا رسـول الله، إني لو جلست عنـد غيرك من أهـل الدنيا لرأيت أن أخرج من سَـخَطه بعذر، لقد أُعطيتُ جَـدَلًا، ولكني والله لقد علمتُ لئن حَدّثتك اليوم

(١) في بعض النسخ «أتفكر».

بحديث كَذب ترضى به عني، ليوشـكن الله أن يُسْخطك علي، ولئـن حدثتك بصدق تَجدُ علي فيه، إني لأرجو عقبى ذلك من الله عَزَّوَجَلَّ، **والله مـا كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسـر مني حين تخلفت عنك**.

قال: فقال رسـول الله ﷺ: «**أما هذا فقـد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك**».

فقمتُ وقام إلي رجالٌ من بني سَـلِمة واتبعوني، فقالوا لي: والله مـا علمناك كنتَ أذنبتَ ذنبًا قبل هذا، ولقد عَجَزت إلا أن تكـون اعتذرتَ إلى رسـول الله ﷺ بما اعتـذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك.

قـال: فوالله مـا زالوا يؤنّبوني حتـى أردتُ أن أرجع فأُكذِّب نفسـي، قـال: ثم قلت لهـم: هل لقي هـذا معي أحـدٌ؟ قالوا: نعـم، لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلـتَ، وقيل لهما مثل ما قيل لك. فقلـت: فمن هما؟ قالوا: مُرَارة بـن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا لي فيهما أسوة، قال: فمضيتُ حين ذكروهما لي.

قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنَبَنَا الناس وتغيّروا لنا، حتى تنكرَتْ لي في نفسي الأرضُ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشَبَّ القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم، وأقول في نفسي: حَرّك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر إلي، فإذا التفت نحوه أعرَض عني.

حتى إذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مَشَيت حتى تسورت حائط أبي قتادة وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدُك الله: هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، قال: فعدتُ فنشدته فسكت، فعدت فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم، قال: ففاضت عيناي وتوليت حتى تسوّرت الجدار.

فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا أنا بنَبَطِيٌّ من أنباط الشام، ممن قَدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفِقَ الناس يشيرون له إليّ، حتى جاء فدفع إلي كتابًا من ملك غسان، وكنت كاتبًا، فإذا فيه: أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، و إن الله لم يجعلك بدار هَوان ولا مَضْيَعة، فالحق بنا نُواسكَ، قال: فقلت حين قرأته: وهذا أيضًا من البلاء، قال: فتيممتُ به التنور فَسَجرته به حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربها.

قال: وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك، قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء، قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن هلالًا شيخٌ ضعيف ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «**لا، ولكن لا يقربَنَّك**»، قالت: وإنه والله ما به من حركة إلى شيء، والله ما يزال يبكي منذ كان من أمره

دار الفاروق للنشر والتوزيع

ما كان إلى يومه هذا، قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما أدري ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجلٌ شاب؟

قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا؛ **قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صارخًا أوفى على جبل سَلْع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. قال: فخررتُ ساجدًا**، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتوبة علينا، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَل صاحبيّ مبشرون، وركض إلي رجُل فرسًا، وسعى ساعٍ من أسلم وأوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس.

فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت ثوبي، فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك يومئذٍ غيرهما، واستعرتُ ثوبين فلبستهما، وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ، يلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنئوني بتوبة الله ﷻ، يقولون: لِيَهْنِك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يُهرول، حتى صافحني وهَنَّأني، والله ما قام إلي رجلٌ من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرُق وجهه من السرور: «**أبشر بخير يومٍ مَرّ عليك منذ ولدتك أمّك**».

قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «**لا، بل من عند الله**» قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، حتى يعرف ذلك منه. فلما جلستُ بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله. قال: «**أمسك عليك بعض مالك، فهو خيرٌ لك**»، قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر.

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات

وقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا ما بقيت.

قال: فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدتُ كَذبَةً منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله ﷻ فيما بقي.

قال: وأنزل الله ﷻ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

قال كعب رضي الله عنه: فوالله ما أنعم الله على من نعمةٍ قط بعد أن هداني للإسلام أعظمَ في نفسي من صدقي رسولَ الله ﷺ يومئذ، ألا أكون كَذَبْتُه فأهلك كما هلك الذين كَذَبوه؛

فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال للذين كَذَبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، قال الله ﷻ: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

قال: وكنا خُلِّفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسولُ الله ﷺ أمرَنا، حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله ﷻ: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خُلِّفنا بتخلفنا عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه.

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته، رواه صاحبا الصحيح؛ البخاري ومسلم من حديث الزهري بنحوه، قد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها، وكذا رُوي عن غير واحدٍ من السلف في تفسيرها، كما رواه الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر بن عبد الله في

قوله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ قال: هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن ربيعة وكلهم من الأنصار، وكذا قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي وغير واحد وكلهم قال: مُرارة بن ربيعة.

وكذا في مسلم: مرارة بن ربيعة في بعض نسخه، وفي بعضها: مرارة بن الربيع.

وفي رواية عن سعيد بن جُبَير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ربيع بن مرارة، وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ربيع بن مرارة أو مرارة بن ربيع، وفي رواية عن الضحاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مُرارة بن الربيع، كما وقع في الصحيحين، وهو الصواب.

وقوله: «فسموا رجلين شهدا بدرًا»، قيل: إنه خطأ من الزهري؛ فإنه لا يُعْرَف شُهودُ واحد من هؤلاء الثلاثة بدرًا، والله أعلم.

ولما ذكر ﷻ ما فرّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب، من هجر المسلمين إياهم نحوًا من خمسين ليلة بأيامها، وضاقت عليهم أنفسهم، وضاقت عليهم الأرض بما

رَحُبت، أي: مع سعتها، فسدّدت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله ﷻ، واستكانوا لأمر الله ﷻ، وثبتوا حتى فرج الله ﷻ عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر، فعوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيرًا لهم وتوبة عليهم؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: اصدُقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجًا من أموركم ومخرجًا.

وقد قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن شقيق؛ عن عبد الله - هو ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ: «**عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله**

كذابًا»، أخرجاه في الصحيحين[١].

وقال شعبة، عن عمرو بن مُرّة، سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، اقرءوا إن شئتم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ هكذا قرأها ثم قال: فهل تجدون لأحد فيه - يعني: في الكذب - رخصة؟!!.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ مع محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

وقال الضحاك رحمه الله: مع أبي بكر وعمر وأصحابهما.

وقال الحسن البصري رحمه الله: إن أردتَ أن تكون مع الصادقين، فعليك بالزهد في الدنيا، والكف[٢] عن أهل الملة.

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ

(١) رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

(٢) الكف عن أذية أهل الإسلام، فإن ذلك من أسباب تيسير الصدق، فإن الذي يظلم لابد وأن يضطر إلى الكذب؛ ليتخلص من عاقبة ظلمه، ولا يستطيع، وأما من كف عن أذية أهل الإسلام ولم ينافس على الدنيا، فيسهل عليه أن يكون صادقًا.

عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٠].

يعاتب تعالى المتخلّفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تَبُوك، من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل من المشقة، فإنهم نَقَصُوا أنفسهم من الأجر؛ لأنهم ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ وهو: العطش ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ وهو: التعب ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ وهي: المجاعة ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ أي: ينزلون منزلًا يُرهبُ عدوهم ﴿ وَلَا يَنَالُونَ ﴾ منه ظفرًا وغلبة عليه إلا كتب الله لهم بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرتهم، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم، أعمالًا صالحة وثوابًا جزيلًا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ كما قال ﷻ: ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٣٠].

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:١٢١] يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي: قليلًا ولا كثيرًا ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي: في السير إلى الأعداء ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾، ولم يقل ها هنا «به»؛ لأن هذه أفعال صادرة عنهم؛ ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من هذه الآية الكريمة حظ وافر، ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة، والأموال الجزيلة» اهـ[1].

* * * *

(١) «تفسير ابن كثير» دار طيبة (٤/ ٢٢٩).

وقفة مع كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وقبل أن نشرع في شرح هذا الحديث الرائع نرى كيفية تفاوت العطاء، فالله عَزَّ وَجَلَّ قد ذكر الثلاثة الذين خلفوا، ولم يذكر كل واحد منهم قصته ولم تحفظ عنه، وإنما حُفظت القصة عن واحدٍ منهم فقط، فليس كل واحد من الثلاثة ذكر هذه القصة، وإنما ذكرها كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد أوتي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوة بيان[1]. وقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شاعرًا من شعراء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن أحد المكثرين من الشعر من الأنصار، وقد ذكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن نفسه:

(١) كعب بن مالك بن أبي كعب عمرو بن القين بن كعب بن سواد بن غنم ابن كعب بن سلمة الأنصاري، الخزرجي العقبي الأحدي.
اشتهر في الجاهلية، وكان في الإسلام من شعراء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه، وأحد الثلاثة الذين خلفوا فتاب الله عليهم، شهد العقبة، وله عدة أحاديث تبلغ الثلاثين، اتفقا على ثلاثة منها، وانفرد البخاري بحديث، ومسلم بحديثين.
روى عنه بنوه: عبد الله، وعبيد الله، و عبد الرحمن، ومحمد [ومعبد]، بنو كعب؛ وجابر، وابن عباس، وأبو أمامة، وعمر بن الحكم، وعمر بن كثير بن أفلح، وآخرون، وحفيده عبد الرحمن بن عبد الله. «سير أعلام النبلاء».

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع

«**لقد أُوتيتُ جدلًا**»، قد أوتي قوة بيان، وأوتي قوة في المجادلة.

وكان من شعره رثاء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه بأبيات –وقيل: أنها لعبد الله بن رواحه رضي الله عنه– منها:

بكت عيني وحق لها بكاها
وما يغني البكاء ولا العويل[1]

على أسد الإله غداة قالوا
أحمزة ذاكم الرجل القتيل؟!!

أصيب المسلمون به جميعًا
هناك وقد أصيب به الرسول

أبا يعلى لك الأركان هدت
وأنت الماجد البر الوصول[2]

عليك سلام ربك في جنان
مخالطها نعيم لا يزول

(١) العويل: البكاء مع ارتفاع الصوت.

(٢) أبو يعلى: هي كنية حمزة رضي الله عنه، وكان حمزة يكنى بابنه يعلى، ولم يعش لحمزة ولد غيره، وأعقب بخمسة من البنين ثم انقرض عقبهم، وكذلك كان يكنى أبا عمارة، والماجد: الشريف.

ألا يا هاشم الأخيار صبرًا
فكل فعالكم حسن جميل

رسول الله مصطبر كريم
بأمر الله ينطق إذ يقول

ألا من مبلغ عني لؤيًا
فبعد اليوم دائلة تدول[1]

وقبل اليوم ما عرفوا وذاقوا
وقائعنا بها يشفى الغليل[2]

نشيتم ضربنا بقليب بدر
غداة أتاكم الموت العجيل[3]

غداة ثوى أبو جهل صريعًا
عليه الطير حائمةً تجول[4]

(١) دائلة تدول: يريد دائرة الحرب.

(٢) الغليل: حرارة الجوف من عطش أو حزن.

(٣) العجيل: العاجل السريع.

(٤) حائمة: تدور حوله، وتجول: تجيء وتذهب.

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع

وعـتـبـة وابـنـه خـرا جـميعًـا
وشيبة عضه السيف الصقيل[١]

ألا يـا هـنـد فـابـكـي لا تـملـي
فـأنـت الـوالـه الـعبـرى الـهبـول[٢]

ألا يـا هـنـد لا تـبـدي شـمـاتًـا
بـحـمـزة إن عـزكـم ذلـيـل[٣]

وقال في رثاءه لقتلى مؤتة:

في لـيـلـة وردت عـلـى همومها
طـورًا أحِـنُّ وتـارة أتـمـلْمَـل[٤]

واعــتـادني حُـزنُ فـبـت كـأنـنـي
ببنَاتِ نعشٍ والسِّمـاك مـوكَّـل[٥]

(١) خرا جميعًا: سقطا على الأرض.
(٢) الهبول: التي فقدت عزيزها.
(٣) الواله: الشديد الحزم. والعبرى: الكثيرة الدمع.
(٤) أحـن: من الحنين وفي رواية أخن: صوت يخرج من الأنف عند البكاء
أتململ: أتقلب متبرمًا بمضجعي.
(٥) يريد: أنه بات يرعى النجوم طول ليله من طول السهاد.

وكـأنـما بـين الـجـوانـح والـحَـشَـى
ممـا تـأوبَـنـي شـهـاب مُـدْخـل[١]

وجْـدا على الـنَّـفَـر الـذيـن تَـتَـابَـعُـوا
يـومًـا بـمـؤتـة أسـنـدوا لـم يُنقلوا

صـلـى الإلــه عـلـيـهـم مـن فتية
وسقى عظامهم الغمام المسبل[٢]

صــبروا بـمـؤتـة لـلإلـه نفوسـهـم
حذر الـردى ومخافة أن يَنْكُلُوا[٣]

وسياق الحديث يدل على ذلك دلالةً ظاهرة، وكما ذكرنا لم يحفظ عن صاحبيه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا سياق القصة، ولم ندر تفاصيل هذه القصة العظيمة إلا من خلال كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهذا من تفاوت العطاء، فالله عَزَّ وَجَلَّ أعطاه قدرة على البيان وقدرة على الكلام، وحسن السياق، فساق القصة بسياق رائعٍ عظيم رغم أنه كان يحدث بها حين أصابه العمى في كبره، ومع ذلك كان

(١) المُدخل: النافذ إلى الداخل.
(٢) المسبل: الممطر.
(٣) صبروا نفوسهم: حبسوها على ما يريدون. ينكلوا: يرجعوا هائبين.

ذاكرًا لقصته وعنه تناقلها أبناؤه وغيرهم.

ونريد أن نتأمل ما الذي بينه القرآن في القصة، وما الذي وقع عليه لفت الأنظار والقلوب، والتذكير بأمور معينة.

❊ ❊ ❊ ❊

فضائل الصحابة وآل البيت رضي الله عنهم

يظهر من أول الآيات أن الله عز وجل هو الذي تاب على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، وعلى الثلاثة الذين خلفوا رضي الله عنهم، فأن يكون الإنسان تبعًا لهؤلاء الصالحين، تبعًا للنبي ﷺ والمهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، هو الغرض المقصود.

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]

وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات

﴿اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر]

ولابد أن نعرف منزلة المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، خصوصًا أفضلهم أبا بكر وعمر وعثمان وعليًا رضي الله عنهم، ثم باقي العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم، ثم الستة أهل الشورى رضي الله عنهم، وأهل بدر الذين قال فيهم النبي ﷺ: «**لعل الله أن يكون اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»(١).

وأهل بيعة الرضوان الذين بايعوا تحت الشجرة في الحديبية؛ فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: أخبرتني أم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: «**لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد؛ الذين بايعوا تحتها...**»(٢).

ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل أعظم درجةً ممن أنفق من بعد الفتح وقاتل، وكلًا وعد الله الحسنى، وكذا زوجاته ﷺ ورضي الله عنهن أجمعين.

(١) رواه البخاري (٢٧٨٥)، ومسلم (٤٥٥٠).
(٢) رواه مسلم (١٦٣).

وكذا حب آل البيت فرض واجب كما أوصانا النبي ﷺ في حديث زيد بن أرقم قال ﷺ: «... **وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي**»، فقال له حصين بن سبرة: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده قال: ومن هم ؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة ؟ قال: نعم»(١).

وعن عروة بن الزبير، عن عائشة، أن فاطمة أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من النبي ﷺ فيما أفاء الله على رسوله ﷺ؛ تطلب صدقة النبي ﷺ التي بالمدينة، وفدك وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: «**لا نورث، ما تركنا فهو صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال، يعني: مال الله، ليس لهم أن يزيدوا على المأكل**»، وإني والله لا أغير شيئًا من صدقات النبي ﷺ التي كانت عليها في عهد النبي ﷺ،

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨).

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١٢٢٠٠٠٤٦٩

ولأعملن فيها بما عمل فيها رسول الله ﷺ، فتشهد علي، ثم قال: إنا قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك، وذكر قرابتهم من رسول الله ﷺ، وحقهم، فتكلم أبو بكر فقال: والذي نفسي بيده، لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي[1].

وأهل السنة يجمعون بين حب الصحابة وحب آل البيت، ولا يجعلون هناك تناقضًا بين ذلك كما يفعل الرافضة، ولا يسبون آل البيت كما فعل النواصب الذين كانوا في زمن بني أمية.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويحبون -أي: أهل السنة والجماعة- أهل بيت رسول الله ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ حيث قال يوم غدير خم: «**أذكركم الله في أهل بيتي**»، وقال أيضًا للعباس عمه وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم، فقال: «**والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي**»، وقال: «**إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني

(١) رواه البخاري (٣٤٣٥).

من بني هاشم**».

ويتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين، ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة، خصوصًا خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أم أكثر أولاده، أول من آمن به وعاضده على أمره، وكان لها منه المنزلة العالية، والصديقة بنت الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، التي قال النبي ﷺ فيها: «**فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»[1]، ويتبرءون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة، ويسبونهم، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل»[2].

فقد ذكرت الآيات منزلتهم العظيمة، ومعيتهم للنبي ﷺ وصحبتهم له، وفرقت في السياق بين هؤلاء، وبين الثلاثة الذين خلفوا؛ ليدلنا ذلك على المنزلة التي خص الله عَزَّ وَجَلَّ بها المهاجرين والأنصار، فالله عَزَّ وَجَلَّ وفقهم وهداهم، ومما يقتضيه ذلك من حبهم وتوليهم والبراءة ممن يطعن فيهم؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ

(١) رواه البخاري (٣٢٣٠)، ومسلم (٢٤٣١).
(٢) «العقيدة الواسطية».

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع

إنما ذكر فضلهم في كلامه، الذي يتلى إلى يوم القيامة، وأمر باتباعهم؛ لأن الله ﷻ يعلم صدقهم، ويعلم ثباتهم، وأنه اجتباهم واختارهم لصحبة نبيه ﷺ، فلا يصح أن يعلم الله ﷻ ضلالهم بعد هدايتهم، وزيغهم بعد توفيقهم، ثم يجعل لهم هذه المنزلة العالية.

فعن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»(١).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من كان مستنًّا فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب رسول الله ﷺ كانوا والله أفضل هذه الأمة، وأبرها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم».

قال شيخ الإسلام رحمه الله **معلقًا على هذا الأثر**: «وقول عبدالله

(١) رواه البخاري (٣٣٧٨)، ومسلم (٤٥٩٩).

ابن مسعود: كانوا أبرّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا كلام جامع؛ بيّن فيه حسن مقصدهم ونياتهم ببر القلوب، وبيّن فيه كمال المعرفة ودقتها بعمق العلم، وبيّن فيه تيسير ذلك عليهم وامتناعهم من القول بلا علم بقلة التكلف»(١).

فتبًا للجاحدين والطاعنين في أصحاب النبي ﷺ من الرافضة وأشباههم، الذين هم شر أهل البدع والعياذ بالله ﷻ.

فلا يصح أن يغفل أهل الإسلام عن هذه البدعة الخطيرة، بدعة ذم الصحابة فضلًا عن تكفيرهم، أو تفسيقهم، أو تضليلهم.

* * * *

(١) «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية» (٢/ ٧٩).

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع

قضية العمل الإسلامي

وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اتباع النبي ﷺ في ساعة العسرة، في وقت الشدة، هذا الذي يحبه الله عَزَّوَجَلَّ، يقدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الشدائد لينظر عمل المؤمنين الذي يحبه، وقد ذكر عَزَّوَجَلَّ متابعة المهاجرين والأنصار للنبي ﷺ مع الشدة التي هي كثافة العدو - وطول السفر، وشدة الحر، وقلة المؤنة وقلة تجهيز الجيش-، وكثرة المرغبات في الجلوس، من طيب الثمار وحسن الظلال، ووجود البيوت الموائمة والمناسبة، مع أن هذا العدو الكثيف ليس يطرق الأبواب الآن، والأعداء الذين يُخشى منهم أن يطرقوا الأبواب قد انقادوا واستسلموا، فلماذا نبحث عن أعداء جدد كما يظن البعض؟

قضية العمل للإسلام في كل الظروف، والعمل على نشر هذا الدين في أرجاء الأرض، والشعور بعالمية هذا الدين، كل ذلك استوجب اتباع النبي ﷺ في ساعة العسرة، فهذه المعاني

لابد وأن تكون حاضرةً لدى أهل الإيمان في كل زمان، وهو أن يتبعوا الحق ويعملوا به.

فمعية النبي ﷺ ومتابعته ليست مقتصرة على من كانوا معه في زمنه فقط، بل كل من كان على طريقته فهو معه كذلك، بالقلب والطريقة والمنهج، فلابد أن نحرص على ذلك، ونعلم أنه بهذا تنال المراتب العالية، والمنازل السامية، لا تنال براحة الأبدان ولا باطمئنان الإنسان في بيته بغير بذل مجهود وبغير استعداد للتضحية.

ذروني أنل ما لا ينال من العلا
فصعب العلا بالصعب والسهل بالسهل
تريدون نيل المعالي رخيصة
ولابد دون الشهد من إبر النحل

❋ ❋ ❋ ❋

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦

منة الله في هداية العبد

ذكر الله ﷻ توبته مرتين على المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، وتوبته على الثلاثة كذلك، فقال ﷻ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فدل ذلك على أن توبة العبد بين توبتين من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، توبة قبل توبته، وتوبة بعد توبته، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ﴾، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

تاب عليهم حتى لا تزيغ القلوب، وترجع إليه ﷻ، فلما رجعت إلي الله ﷻ وتحملت العقوبة والأذى والمشاق، حتى

تثبت صدقها في حبها لله ﷻ ولرسوله ﷺ، والعزم الصادق على الثبات على هذا الحق، قبل الله ﷻ تلك التوبة.

تبين بذلك أن التوبة المذكورة أولًا هي الواقعة آخرًا ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، بعد توبة هؤلاء الثلاثة، وبعد اهتداء المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم بدلًا من الزيغ، والتوبة المذكورة ثانيًا هي التي وقعت أولًا ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾.

فهناك توبتان، توبة قبل أن يتوب العبد، يتوب الله ﷻ عليه ليتوب، فالتوبة المذكورة أولًا ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ هذه التي وقعت بعد الخمسين ليلة، وهذه التي أخبر الله ﷻ بها نبيه ﷺ بالوحي، وكانت هذه بعد توبة الثلاثة وبعد اهتداء المهاجرين والأنصار وعدم زيغ قلوبهم، وأما التوبة التي ذكرت ثانيًا في ذكر المهاجرين والأنصار فهي بعد ذكر أن قلوبهم كادت أن

تزيغ فثبتها الله، فقلوبهم ثبتت لأن الله تاب عليهم، فهي عطف جملة على جملة، ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾، وهم قد تابوا، فالتوبة المذكورة ثانيًا هي وقعت أولًا قبل توبتهم، بل هي سبب توبتهم ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾، تاب عليهم لئلا يزيغوا؛ ليثبتوا، فقد كان ثباتهم بسبب توبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليهم.

وهذا الأمر عظيم الأهمية، وذلك أن العبد لابد أن يستحضر فضل الله عليه، وأن التزامه بالدين محض منة من الله ﷻ وفضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليه به، ليس أنه الذي يمن على غيره من الخلق فضلًا عن أن يمن على الدين وعلى الله ﷻ نعوذ بالله من ذلك، هذا الذي يمن بعمله على الله ﷻ يشعر أن له منزلة، ولولاه لما قام الدين إنسان مغرور جاهل ظالم لنفسه، فلابد وأن نعلم أن الذي من علينا بهذا الدين هو الله ﷻ، ومن علينا بالالتزام الصادق به إن كنا صادقين في أننا نلتزم بهذا الدين، ومن علينا قبل ذلك بالتوبة.

فهذا الذي يظن أن له فضل على غيره، وعلى هذا الدين فهذا والعياذ بالله دائمًا إيمانه مدخول ومعيب، إن لم يكن

منافقًا والعياذ بالله، كما قال ﷻ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات]، وقوله ﷻ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٤٠].

فالدين ليس في حاجةٍ إلي أحد، والله ﷻ غنيٌ عن خلقه جميعًا، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:٨]. قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر:٧]. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

وثبت في الصحيح [1] من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه قال: **«يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا، يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط**

(١) رواه مسلم (٤٦٧٤).

إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» الحديث.

فلابد وأن نعمل ونحن مستحضرين أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي منّ علينا بالعمل، ومنّ علينا بالدعوة، ومنّ علينا بالقرآن، ومنّ علينا بالجهاد، ومنّ علينا بالصلاة والزكاة وجميع الطاعات، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧]، وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَهُوَ يَنْقُلُ التُّرَابَ حَتَّى وَارَى التُّرَابُ شَعَرَ صَدْرِهِ وَكَانَ رَجُلًا كَثِيرَ الشَّعَرِ وَهُوَ يَرْتَجِزُ بِرَجَزِ عَبْدِ الله بْنِ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا
وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا
وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١٢٠٠٤٦١٤٦

إِنَّ الأَعْدَاءَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا

وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

يَرْفَعُ بِهَا صَوْتَهُ[1].

وأما الذي يري لنفسه فضلًا في طاعته، فهذا طاعته ناقصة وإيمانه ناقص، إن لم يكن زائلًا والعياذ بالله من ذلك.

فذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التوبة الأولي التي وُفقوا بها للتوبة وعدم زيغ القلوب، والثانية التي قبل منهم توبتهم وقبل منهم استغفارهم وغفر لهم ذنوبهم هي قبول توبتهم، وهذا لأن العبد مغمورٌ في نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو يشهد قضاء الله عَزَّوَجَلَّ عليه وقدره، وأنه لا حول ولا قوة له إلا بالله، فيورثه ذلك شهود نعمة الله عَزَّوَجَلَّ عليه، فيوفق لشكرها، ولذا قال كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله»، وقوله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا ما بقيت» فلابد وأن يستحضر العبد ذلك.

(١) رواه البخاري (٣٠٣٤) بَابٌ: الرَّجَزِ فِي الْحَرْبِ وَرَفْعِ الصَّوْتِ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ، ومسلم (٣٣٦٣) غزوة خيبر.

فهداية العبد بين هدايتين من الله عَزَّوَجَلَّ، هداية وفقه بها أولًا ليهتدي، فلما اهتدي زاده هدى كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧].

«تقواك»: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آتاك إياها، ثم لما اتقيت وفقك لمزيد التقوى، وقبل منك عملك، فلابد أن تشهد نفسك مغمورًا في فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن تشهد نفسك عاجزًا ضعيفًا، لا تملك لنفسك ضرًا ولا نفعًا، ولا هداية ولا توفيقًا ولا شيئًا إلا بحول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقوته.

* * * *

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦

وقفة مع أسماء الله وصفاته

ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أسماءه وصفاته، وهذا يدلنا على أهمية الارتباط بالأسماء والصفات، فذكر في توبته على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ فذكر اسم الرؤوف والرحيم، وذكر في توبته على الثلاثة الذين خلفوا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فذكر اسم التواب والرحيم.

فالرؤوف: شديد الرحمة، الرحمة البالغة، فيها معنى الرفق والحنان، وقد ثبت هذا المعني في بعض الأحاديث، فقد ورد عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت جالسًا في المسجد ورجلٌ يصلي فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا اله إلا أنت الحنان المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، فقال النبي ﷺ: «**أتدرون بما دعا؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: «**والذي نفسي بيده، لقد دعا باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»[1].

(١) رواه أحمد (٣/ ١٥٨)، والحاكم (١/ ٣٠٥) وقال: «صحيح على =

قال الخطابي: «(الحنَّان) معناه: ذو الرحمة والعطف. والحَنَان مخفف: الرحمة».

وقال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى (الحنَّان) وهو بتشديد النون: الرحيم بعباده، فعَّال من الرحمة البالغة». فمعنى الرأفة شامل لهذه المعاني.

فاسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الرؤوف، واسمه الرحيم من أعظم ما يتعلق به أهل الإيمان، واسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التواب – وهو كثير التوبة – يرجع على عبده بالخير ما رجع العبد إليه، فالتوبة رجوع، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يرجع على عبده بأنواع الخيرات التي كان يصبها عليه صبًا لما كان مطيعًا، فهو ابتدأها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا انقطع العبد عن الطاعة، قطع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنه بعض أسباب الخير، ثم لما رجع العبد إليه بالطاعة رجع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إليه بالخيرات أولًا وثانيًا، لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو التواب، الذي يفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه، كما قال النبي ﷺ:

= شرط مسلم» صححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح ابن حبان» (٨٩٣)، و«صحيح أبي داود» (١٣٤٢)، و«الصحيحة» (٣٤١١) دون اسم «الحنان»، وقوله «يا حي يا قيوم».

«لله أفرح – وفي رواية: أَشَدُّ فرحًا – بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة»[1] الحديث.

فنلحظ مدى التأكيد على قضية الإيمان بالأسماء والصفات، ودخول هذا الركن من أركان الاعتقاد في كل سلوكيات المؤمنين، ويحكم كل تصرفاتهم، ويرشدهم إلى ما يجب عليهم أن يتعلقوا به من أسماء الله ﷻ وصفاته.

قال كعب بن مالك ﵁: «لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تَبوك، غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر، ولم يُعاتَب أحدٌ تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عِيرَ قريش، حتى جمع الله بينه وبين عدوّه على غير ميعاد».

يعني: غزوة بدر خرج النبي ﷺ يريد القافلة، ولذا لم يستوعب المقاتلين، **يعني:** لم يعلن النفير العام؛ ليحضر كل مقاتل قادر على القتال، وإنما خرج بمن كان متجهزًا، فلم تكن قوات المسلمين تمثل القدرة العسكرية القصوى للدولة

(١) رواه البخاري (٥٨٣٤)، ومسلم (٤٩٢٧).

الإسلامية؛ لأنهم لا يريدون قتال جيش، وإنما خرجوا يريدون أخذ قافلة تجارية واحتوائها، ولم يكونوا يعلمون أنهم سوف يواجهون قوات قريش وأحلافها مجتمعة للحرب، فكان العدد كافيًا، فإذا بهم وقد فاتت القافلة وواجهوا الجيش، ولذا وقعت هذه الغزوة من غير أن يستوعب كل المقاتلين فيها، فلم يكن هناك عتاب على من تخلف؛ لأنهم لم يكونوا على موعد، ولم يكونوا يعرفون بوجود هذه الغزوة على هذه الحال.

قوله ﵁: «ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام».

يعني: حين كان هناك عهد وميثاق وبيعة على الإسلام، بيعة العقبة بين الرسول ﷺ وبين الأنصار على أن يؤووا رسول الله ﷺ، ويمنعوه مما يمنعوا منه أنفسهم ونساءهم وأولادهم، وذلك كان مقدمة الهجرة النبوية المباركة.

وهذا نستفيد منه: أن لكعب ﵁ قدمُ راسخ، وسبقٌ في الإسلام، فقد كان ﵁ أحد الأنصار الذين بايعوا بيعة العقبة، ومع ذلك كان هذا الامتحان في آخر حياة النبي ﷺ، أعني في

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ١٤٤٦

سنة تسع يعني بعد كل ما سلف له من الجهاد والغزو في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومع كونه مقدمًا في الإسلام، إلا أنه امتحن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحين تخلف عن رسول الله ﷺ عُوتب أشد العتاب، وكاد أن يهلك لولا فضل الله عليه وعلى صاحبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -ونسأل الله العافية-.

****

الخوف من سوء الخاتمة

وهذا يجعل كل مؤمن خائفًا من سوء الخاتمة، وخائفًا أن يفشل في امتحان آخر، بعد ما مر به من امتحانات وابتلاءات عبر عمره، فليس أنك وفقت في امتحان وثبت فيه، دليلٌ على أنك ولابد ستوفق في كل الابتلاءات والامتحانات بعد ذلك، فلابد وأن يكون هناك ابتلاءات إلى أن تنتهي هذه الحياة، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت]. وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴾ [محمد:٣١].

وما سبق من السبق والثبات لا يعني أن الإنسان يطمئن إلى عمله، فهؤلاء الثلاثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا من فضلاء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهذا كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أهل بيعة العقبة، وصاحباه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، هلال ابن أمية، ومرارة بن الربيع، ممن شهدا بدرًا، فدل ذلك على خطر الخاتمة، وأن الإنسان لا يدري بماذا يختم له، فيستفيد

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات

أن يكـون متحرزًا، وأن يكون دائمًا على يقظة لنفسـه، لا تنجر قدمه ويسـقط في الفتن وهو لا يشـعر، فـإذا كان هؤلاء الثلاثة رضي الله عنهم بهـذه المنزلة ووقـع لهم ذلك الابتـلاء، فمن كان دونهم أولى بأن يخاف على نفسه.

فعن سـهل بن سـعد رضي الله عنه: «**أن رجلًا من أعظم المسلمين غنـاءً عن المسـلمين في غزوة غزاها مع النبـي ﷺ، فنظر النبي ﷺ فقـال: من أحب أن ينظر إلى الرجل مـن أهل النار فلينظر إلى هذا، فاتبعه رجل من القوم وهو على تلك الحال من أشـد الناس على المشـركين، حتى جرح فاستعجل الموت، فجعل ذبابة سيفه بين ثدييه حتى خرج من بين كتفيه، فأقبل الرجل إلى النبي ﷺ مسـرعًا فقال: أشـهد أنك رسول الله، فقال وما ذاك؟ قـال: قلت لفلان: من أحـب أن ينظر إلى رجل مـن أهل النار فلينظر إليه، وكان من أعظمنا غناءً عن المسـلمين، فعرفت أنه لا يموت على ذلك، فلما جرح اسـتعجل الموت فقتل نفسـه، فقال النبي ﷺ عند ذلـك: إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه مـن أهـل الجنة، ويعمل عمل أهـل الجنة وإنه مـن أهل النار،**

وإنما الأعمال بالخواتيم»[1].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «فإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته، وكمال إدراكه قد تمكن منه الشـيطان واسـتعمله بما يريده من المعاصي، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله عز وجل وعطل لسـانه عـن ذكره، وجوارحه عـن طاعته، فكيـف الظن به عند سـقوط قواه، واشـتغال قلبه ونفسـه بما هو فيه من ألم النزع، وجمـع الشـيطان لـه كل قوته وهمته وحشـد عليـه بجميع ما يقدر عليه، لينـال منه فرصته؟! فإن ذلك آخر العمل فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو في تلك الحالة، فمن ترى يسلم على ذلك فهناك: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فكيف يوفق لحسـن الخاتمة من أغفل الله سبحانه وتعالى قلبه عن ذكره، واتبع هواه وكان أمره فرطا؟ فبعيدٌ من قلبه بعيد من الله سبحانه وتعالى، غافلٌ عنه، متعبدٌ لهواه، أسيرٌ لشهواته، ولسانه

(١) رواه البخاري (٦١١٧) باب: العمل بالخواتيم.

يابس من ذكره، وجوارحه معطلة من طاعته، مشتغلة بمعصية، أن يُوفق لحسن الخاتمة.

ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين، وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعًا بالأيمان: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم].

يا آمنًا من قبيح الفعل يصنعه
هل أتاك توقيع أم أنت تملكه
جمعت شيئين أمنًا واتباع هوى
هذا وإحداهما في المرء تهلكه
والمحسنون على درب المخاوف قد
ساروا وذلك درب لست تسلكه
فرطت في الزرع وقت البذر من سفه
فكيف عند حصاد الناس تدركه
هذا وأعجب شيء منك زهدك في
دار البقاء بعيش سوف تتركه

من السفيه إذًا بالله أنت أم المغبون
في البيع غبنا سوف تدركه»[1]

قوله رضي الله عنه: «**وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذْكَر في الناس منها وأشهر**».

يعني: لو خير بين أن يكون من أهل بيعة العقبة أو من أهل بدر لاختار أن يكون من أهل بيعة العقبة، لأن هذه البيعة هي التي ترتبت عليها الهجرة، والتمكين للرسول ﷺ في المدينة والتي صارت نقطة انطلاق للجهاد.

فغزوة بدر فرعٌ على هجرة النبي ﷺ، والهجرة فرع على بيعة العقبة، - وإن كانت بدر أذكر في الناس منها- يعني: أكثر ذكرًا وأشهر، والناس دائمًا يذكرون من شهد بدرًا! من شهد بدرًا ! فيمدحونه، ولكنه رضي الله عنه يفضل بيعة العقبة عليها، والذي عليه جمهور الصحابة رضي الله عنهم تقديم من شهد بدرًا على من شهد البيعة.

لأن النبي ﷺ قال عن أهل بدر: «**لعل الله أن يكون قد اطلع**

(١) «الجواب الكافي» (ص ١٠٢/ ١٠٣).

على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»[1].

وعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ عَبْدًا لحاطب جَاءَ رَسُولَ الله ﷺ يَشْكُو حَاطِبًا لأنه كان يجيعهم، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، لَيَدْخُلَنَّ حَاطِبٌ النَّارَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كَذَبْتَ، لَا يَدْخُلُهَا؛ فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ**»[2].

وعَنْ جَابِرٍ، عَنْ أُمِّ مُبَشِّرٍ امْرَأَةِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ فِي بَيْتِ حَفْصَةَ، فَقَالَ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ...**»[3].

(١) رواه البخاري (٢٧٨٥)، ومسلم (٤٥٥٠).

(٢) رواه مسلم (٤٥٥١).

(٣) رواه احمد (٢٧٠٤٢)، وقال الأرنؤوط: «صحيح، وهذا إسناد اختُلف فيه على الأعمش، وقد بسطنا الاختلاف فيه في الرواية (٢٦٤٤٠)، ابن إدريس: هو عبد الله، وأبو سفيان: هو طلحة بن نافع، وجابر: هو ابنُ عبدالله الصحابي».
وأخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٨٦١)، وفي «الآحاد والمثاني» (٣٣١٦)، والطبري في «التفسير» ١٦/ ١١٢، وابن حبان (٤٨٠٠)، والطبراني في «الكبير» (٢٥/ ٢٦٦)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٧/ ٣٩٠) من طريق ابن إدريس، بهذا الإسناد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٨٢).

وقوله رضي الله عنه: «**وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلّفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راحلتين** -الراحلة- هي الناقة التي تصلح للسفر الطويل «**قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة**» لم يكن يملك في حياته قط راحلتين، يعني: ناقتين للسفر، ولكن يسر الله عز وجل له قبلها حتى كان عنده راحلتان.

وهذا الاعتراف منه رضي الله عنه من أنه كان قويًا وميسور الحال هو من كمال الندم، ومن كمال التوبة؛ لأنه يعترف أنه لم يكن له عذرٌ حقيقي، وهذا هو الندم الصادق والتوبة الصادقة؛ أن لا يعتذر الإنسان بأعذارٍ وهمية كاذبة، ليست حقيقية، وإنما يعترف على نفسه بالتقصير والذنب وهذا هو الذي فتح له باب التوبة بفضل الله عز وجل.

وقوله رضي الله عنه: «**وكان رسول الله ﷺ قَلَّما يريد غزوة يغزوها إلا وَرّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة**».

والتورية[1] إيهام السامع خلاف ما تقصد، مع أنه لم يصرح

(١) التورية: لغةً الستر، وتَوَارَى الرَّجُلُ: اسْتَتَرَ واخْتَفَى، وهو أن يَذكُرَ المتكلّم =

بخلاف قصده؛ فمثلًا: كان ﷺ إذا أراد أن يتجه شرقًا سأل عن أحوال الغرب، فالناس يظنون أنه سوف يتجه غربًا، وهو يوري في الحقيقة ثم يتجه شرقًا.

والنبي ﷺ لما أراد أن يهاجر إلي المدينة اتجه جنوبًا في غار ثور الذي لجأ إليه النبي ﷺ جنوب مكة، وهو متجه شمالًا، ولكنه إذا اتجه جنوبًا فظنوا أنه متجه في اتجاه آخر، هذا فيه استعمال التورية في الحرب، حتى يؤخذ العدو على حين غفلة.

* * * *

= لفظًا مفردًا له معنيان، على سبيل الحقيقة، أو على سبيل الحقيقة والمجاز، أحدهما ظاهر قريبٌ يَتَبَادَرُ إلى الذهن وهو غير مراد، والآخَرُ بعيد فيه نوع خفاءٍ وهو المعنى المراد.

وأصل التورية في اللّغة: إرادةُ الشيءِ وإظهارُ غيره إيهامًا، فالرسول ﷺ كان إذا أراد غزاة أو سفرًا إلى جهةٍ وَرَّى بغيرها، ليعمّي الأخبار، حتَّى لا يترصَّد له الأعداء..

وقفة مع غزوة تبوك

وقوله رضي الله عنه: «**فغزاها رسول الله ﷺ في حَرٍّ شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا، واستقبل عدوًا كثيرًا كثيفًا**».

فالرسول ﷺ غزا في حرٍ شديد، فقد كانت هذه الغزوة في شهر رجب من العام التاسع الهجري، وقد اشتهرت بأنها غزوة العسرة وقد ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذا الاسم في كتابه: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

وبوب الإمام البخاري لهذه الغزوة بقوله: «باب: غزوة تبوك وهي غزوة العسرة»[1]، وإنما سُميت بذلك لشدة ما لاقى المسلمون فيها من الضنك، وقد كان الجو شديد الحر، والمسافة بعيدة، والسفر شاقًا لقلة المؤنة، وقلة الماء حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء، حتى قال

(١) رواه البخاري (٤٤١٥).

عمر رضي الله عنه: «خرجنا مع النبي ﷺ إلي تبوك في قيظٍ شديد، فنزلنا منزلًا أصابنا فيه عطشٌ شديد، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان أحدنا يذهب يلتمس الخلاء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته تنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرشه فيشربه ويضعه على بطنه».

وكل هذه عوامل تربوية لتربية الصحابة رضي الله عنهم، فالنبي ﷺ كان يمكنه أن يؤخر الغزو إلى الشتاء، وإلى أن يكثر عدد المسلمين.

وكما نعلم أن غزوة مؤتة كانت أول مواجهة بين المسلمين وبين الروم – وبين نصارى الشام وما وراءها – فكان عدد المسلمين في غزوة مؤتة ثلاثة آلاف من المهاجرين والأنصار من الصحابة رضي الله عنهم، في مواجهة مائتي ألف من الروم ومتنصرة العرب، فليس العدد ثلاثة آلاف أمام ستة آلاف، وهو العدد الذي يجب على المسلمين الثبات أمامه، ولا حتى ثلاثين ألف، وإنما ثلاثة آلاف أمام مائتي ألف، ولم يكن فيهم هرقل زعيمهم.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «وهذا عظيم جدًا أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين، أحدهما وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله عدتها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة وعدتها مائتا ألف مقاتل، من الروم مائة ألف، ومن نصارى العرب مائة ألف، يتبارزون ويتصاولون، ثم مع هذا كله لا يقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلًا، وقد قتل من المشركين خلق كثير، هذا خالد وحده يقول: لقد اندقت في يدي يومئذٍ تسعة أسياف، وما صبرت في يدي إلا صفيحة يمانية، فماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها؟ دع غيره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن، وقد تحكموا في عبدة الصلبان عليهم لعائن الرحمن، في ذلك الزمان وفي كل أوان...»[1].

والنبي ﷺ غزا غزوة تبوك وهو يريد الشام، ويريد أن يدخل على الروم في بلادهم، فما هو المتصور في ذلك؟ وكم سيكون عدد الروم إذًا؟ والمسلمون عددهم الجامع الكلي ثلاثون ألفًا، فكان أكبر جيش على الإطلاق في حياة النبي ﷺ.

(١) «البداية والنهاية» (٤/ ٢٥٩).

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١٢٠٠٠٠٦٤٦

ولـم يعـرف العرب جيشًـا مثل هـذا الجيـش، ولكنه كان بالنسـبة إلي عـدد جيش الـروم عـددًا قليلًا، وفي سـفر طويل وصحراء واسـعة، وتحتاج إلي نفقـات وزاد ومياه، وكل ذلك لم يكن موجودًا.

فـكان في هذه الغزوة تربية عظيمة للصحابة رضي الله عنهم في تحمل المشاق، والتضحية في سبيل الله عز وجل، وأنهم لن ينالوا ما وعدهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من التمكين بغير البذل والتضحية والصبر على ما يكرهون، وقد فعلوا.

قوله رضي الله عنه: «**فَجَلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم فأخبرهـم وَجْهَـه الذي يريد، والمسـلمون مع رسـول الله** ﷺ **كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ؛ يريد الديوان**»[1].

والديوان: هو السجل الذي يسـجل فيه أسماء الجند، ولم يكن المسـلمون قد تطورت أحوالهم الإدارية كما تطورت في عهد عمر رضي الله عنه، فالنبي ﷺ لم يكن يستعمل الديوان، وتسجيل

(١) أي: النبي ﷺ أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم؛ ليستعدوا الاستعداد المناسب للعدو فأظهر لهم وأخبرهم أنه يريد غزو الروم.

أسـماء الجند، وكانوا لا يحتاجـون إلي ذلك، وإنما فعل ذلك عمر رضي الله عنه لتنظيم أمور الدولة بعد اتساعها شرقًا وغربًا، وكثرة إيـرادات الجزيـة والخـراج والصدقـات، وكثـرت الجيوش فاحتاجـت إلي ضبـط احتياجاتها، وأسـماء رجالها؛ خوفًا من تـرك أحدهـم بـلا عطـاء، أو تكرار العطـاء للآخريـن، ولكن في بدايـة الدولة وقبل اتسـاعها لـم يكن لهذه الأمـور الإدارية الأهمية القصوى.

قولـه رضي الله عنه: «**فَقَلّ رجـل يريـد أن يتغيب إلا ظـن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله** عز وجل».

فلو تغيب واحدٌ من ثلاثين ألف، من سيتذكر أو يلحظ تغيب واحد من جيش عدده ثلاثين ألف، فكل من يريد التخلف يظن في نفسـه أنه لن يعرف، ولن يظهر أمره، إلا لو أنزل الله عز وجل فيه وحيًا، وهذا دليلٌ على أنه ليس كل من كان يريد التخلف كافرًا في الباطـن لعلمه بنزول الوحي، ولكن النفاق درجات، وليس كل النفـاق هو النفـاق الأكبر، فقد يكون الإنسـان عنده بعض خصال النفاق ولا يكون منافقًا النفاق الأكبر.

سبب تخلف كعب ﵁ عن الغزوة

قولـه ﵁: «**وغزا رسـول الله ﷺ تلك الغـزاة حين طابت الثمار والظل، وأنا إليها أصعر**».

يعنـي: أميل، وهـذا أمر آخر مـن الفتنة والامتحـان، النبي يسـافر سـفرًا بعيـدًا، ويواجـه عـدوًا كثيفًـا، ويخـرج في الحر الشـديد، والصحـاري الواسـعة، والمدينة فيهـا الظلال وفيها الثمار، وفيها الراحة، فهناك رهبة ورغبة! يترك الإنسـان الهناء والراحـة والسـرور والظـلال والثمـار، ويخرج إلـى الخوف والخطر، والصحراء البعيدة، ففي الحقيقة كانت تربية عظيمة، فهو يميل إلي ما ذكر من الثمار والظلال.

قولـه ﵁: «**فتجهز إليها رسـول الله ﷺ والمؤمنون معه، وطفقـت أغـدو لكـي أتجهز معهـم، فأرجـع ولـم أقض من جهازي شيئًا**».

يعنـي: جعلـت - أغـدو - أذهـب - مـن أول النهـار لكي أتجهـز، حـوار وصـراع نفسـي يذكره كعـب ﵁، يذكـر لنا

أحواله النفسية لنسـتفيد منها؛ لأن التسويف دائمًا هو الشجرة التـي تضـرب بجذورهـا في قلب الإنسـان ليـزداد هـو ضعفًا وتزداد هي رسـوخًا حتى يعجـز أن يقتلعها، فهي شـجرةٌ غير طيبـة تضرب بجذورهـا، وكل يوم أنت تمدها بسـقي جديد، فتقول غدًا سـأفعل، غدًا سأفعل، فهو ﵁ يخرج لكي يتجهز ويرجع ولم يقض من جهازه شيئًا.

❋ ❋ ❋ ❋

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦

خطورة التسويف في الأعمال الصالحة

قوله رضي الله عنه: «**فأقول لنفسي: أنا قادرٌ على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمَّر بالناس الجد، فأصبح رسول الله** ﷺ **غاديًا** خارجًا أول النهار **والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئًا**».

يعني: أنه كان يذهب ليعد عدة الجهاد من السلاح والزاد وما يحتاج إليه، فيرجع ولم يعد شيئًا، يقول غدًا، أو بعد غد، ولا يزال التسويف به حتى كان السبب في تأخره.

فنستفيد من ذلك خطر تسويف التوبة، وتسويف الاستجابة لأمر الله عز وجل ولأمر رسوله ﷺ، وفائدة سرعة المبادرة، خواطر الخير في نفسك إذا أتتك اغتنمها، فهي صيدٌ ثمين ربما لا تفكر فيها بعد ذلك، ربما يأتي عليك وقت تُحرم فيه من خواطر الخير، فإذا حدثتك نفسك بطاعة فلا تؤخرها إلي الغد، أو إلى بعد حين، بل ينبغي عليك أن تبادر إليها وتغتنم الفرصة.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله **في قوله** سبحانه وتعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ

فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

«**قال بعض السلف**: أي: فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي: أخرتم التوبة من وقت إلى وقت.

وقال قتادة: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالحق وأهله، ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ أي: بالبعث بعد الموت، ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ أي: قلتم: سيغفر لنا، وقيل: غرتكم الدنيا، ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: ما زلتم في هذا حتى جاء «الموت»، ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أي: «الشيطان».

قال قتادة: «كانوا على خدعة من الشيطان، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار»[1].

قال خالد بن معدان رحمه الله: «إذا فتح لأحدكم باب خير فليسارع إليه؛ فإنه لا يدري متى يغلق عنه».

وقال وهيب بن الورد: «إن استطعت أن لا يسبقك إلى الله أحد فافعل».

(١) «تفسير ابن كثير» دار طيبة (٨/ ١٨).

قال الحافظ بن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعلم أن الإنسان ما دام يأمل الحياة فإنه لا يقطع أمله من الدنيا، وقد لا تسمح نفسه بالإقلاع عن لذاتها وشهواتها، من المعاصي، وغيرها ويرجيه الشيطان بالتوبة في آخر عمره، فإذا تيقن الموت وآيس من الحياة، أفاق من سكرته بشهوات الدنيا، فندم حينئذ على تفريطه ندامة يكاد يقتل نفسه، وطلب الرجعة إلى الدنيا؛ ليتوب ويعمل صالحًا، فلا يجاب إلى شيء من ذلك، فيجتمع عليه سكرة الموت، مع حسرة الفوت.

وقد حذر الله في كتابه عباده من ذلك؛ ليستعدوا للموت قبل نزوله بالتوبة، والعمل الصالح، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر].

وقال الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾ [سبأ:٥٤]، وفسره طائفة من السلف، منهم عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ:

«بأنهم طلبوا التوبة حين حيل بينهم و بينها».

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «اتق الله يا ابن آدم، لا يجتمع عليك خصلتان؛ سكرة الموت، وحسرة الفوت»...

مات كثير من المصرين على المعاصي، على أقبح أحوالهم، وهم مباشرون للمعاصي، فكان ذلك خزيًا لهم في الدنيا، مع ما صاروا إليه من عذاب الآخرة...

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الدنيا خمر الشيطان من سكر منها لم يفق إلا في عسكر الموتى نادمًا مع الخاسرين».

غاية أمنية الموتى في قبورهم حياة ساعة، يستدركون فيها ما فاتهم من توبة، وعمل صالح، وأهل الدنيا يفرطون في حياتهم، فتذهب أعمارهم في الغفلة ضياعًا، ومنهم من يقطعها بالمعاصي...

قال بعض السلف: أصبحتم في أمنية ناس كثير، يعني أن الموتى كلهم يتمنون حياة ساعة ليتوبوا فيها، ويجتهدوا في الطاعة، ولا سبيل لهم إلى ذلك...». [(١)].

(١) «باختصار من لطائف المعارف»: (٣٥٤-٣٥٥).

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١١٢٠٤٦١٤٦

صفحة ٦٨ اسود
صفحة ٦٩ اسود

قولـه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وقلـت: أتجهز بعـد يوم أو يوميـن ثم ألحقه حتى إلي لحظة الخروج - ظل يسوف - فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئًا من جهازي».

يعنـي بعدما خـرج الجيش، وهو يريـد أن يتجهز، ما زالت خواطر الخير في نفسه، ولكنه لا ينفذها.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ثم غدوت فرجعت ولم أقض شـيئًا، فلم يزل ذلـك يَتمـادى بي حتى أسـرعوا وتفـارط الغـزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم وليت أنّي فعلتُ ثم لم يُقدَّر ذلك لي**».

يعنـي: بعدما سـبق الغـزو، وخـرج الجيش بمـدة، هم أن يرتحل فيدركهم، أتت له عزيمته أن يتجهز ويلحق بهم. وتأمل كيف أن ندمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما زال به إلي تلك اللحظة.

****

الندم من علامات صدق التوبة

فكعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تاب في سـنة تسـع، وأصابه العمى بعد سـنين طويلة، بعد مشـاركة طويلة في الغزو والجهاد في سـبيل الله عَزَّوَجَلَّ في عهـد الصحابة من الخلفاء الراشـدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولكن لا يزال ندمه حاصـلًا، وهذا من علامات صدق التوبـة؛ أنه وبعد هذا العمـر الطويل يقول: يا ليتني فعلت، دليلٌ على أنه مازال نادمًا حتى هذه اللحظة، حتى بعدما كبر، لكن ندمه مستقر وهذا كما ذكرنا من علامة صدق التوبة، ولذلك جاء في الأثر الإسرائيلي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ «**أوحى إلى موسـى أن قل لبني إسرائيل من أخبرهـم أني قد غفـرت لهم ذنوبهـم حتى يتركوا الاسـتغفار منها؟!**».

وكعـب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه قبـل توبته، وأنه قد غفـر له ذنبـه، ونزل القـرآن يذكره هـو وصاحبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع إدارة المبيعات

تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة].

❋ ❋ ❋ ❋

حكم الاحتجاج بالقدر

ومع ذلك فلا يزال ندمه قائمًا. فيقول يا ليتني فعلت. لكنه يسلي نفسه ويعزيها بالقدر، فيقول: (**ثم لم يُقدَّر ذلك لي**) فهو يعزي نفسه ويسليها، فالإنسان بعد التوبة الصادقة التي عُلم قبولها، أو غلب على الظن قبولها، يمكن أن يحتج بالقدر.

والاحتجاج بالقدر أن يقول: الله قدر هذا، الله لم يقدر هذا، كمن يرتكب ذنبًا فيقول: الله قدر علي ذلك، أو أن يترك واجبًا فيقول: الله لم يقدر لي فعله، وهذه مسألة في غاية الأهمية، وهو متى يجوز للإنسان أن يحتج بالقدر؟.

فالإنسان يحتج بالقدر في المصائب، فالمصائب عمومًا يُحتج فيها بالقدر، كأن يصاب الإنسان بمرض في بدنه، أو ضياع لماله، أو فقدان لحبيب له، فحتى يسلي نفسه ويعزيها لتصبر على هذه الأمور، يذكرها بأن هذا من قضاء الله ﷻ الذي كتبه وقدره، كما قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠٦٤٦

ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة].

أما فعل الذنوب والمعاصي فلا يجوز للإنسان أن يحتج بالقدر عليها، إن لم يتب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منها، كمن يصر على ارتكاب المعاصي والآثام، فإذا أُنكر عليه قال: هذا مما قدره الله علي، ولو أراد الله ﷻ أن يهديني لهداني ولما فعلتها، وهذه هي نفس حجة الكافرين التي احتجوا بها على كفرهم وعدم إيمانهم، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥].

فهم يحتجون بها في الدنيا، فلا تنفعهم. ويحتجون بها في عرصات القيامة فلا تنفعهم كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُّ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ

ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر].

فالاحتجاج بالقدر لم ينفعهم بل قربهم إلى العذاب. فيطلبوا الرجوع و الكرة مرة أخرى -أن يردوا إلي الدنيا ليعملوا صالحًا- ويحتجون بها كذلك على أبواب النار، ويحتجون بها وهم في النار، ما نفعتهم مرة، فالعبد الذي لم يتب من الذنب ويحتج بالقدر أن الله ﷻ هو الذي كتب علي ذلك وقدره، نقول له: كلمة حق يراد بها باطل، فهو يريد أن ينفي مسئوليته وإرادته واختياره، ويقول: الله كتب ذلك علي، وأنا لا مسئولية علي، فأنا لا استحق العذاب!!

فالكفار وهم على أبواب جهنم تسألهم الملائكة: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر].

فهم يقولون: إن الله ﷻ كتب علينا أننا من أهل النار وأننا

سوف نعذب، وهذا مما كتبه علينا وحقت علينا الكلمة ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾.

فلم تنفعهم هذه الكلمة؛ لأنهم يلامون على ماذا؟ أنهم قد أتتهم الرسل وبلغتهم الدعوة، وأمروا ونهوا، وكانت لهم عقول وإرادات، ومع ذلك لم يفعلوا الخير ويتركوا الشر، فهم يعاتبون على ذلك، فاحتجاجهم بـ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، لم تنفعهم ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ وهم في النار يحتجون أيضا بالقدر ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون].

وهم في النار يعذبون يقولون: غلبت علينا شقوتنا، الشقوة التي كتبتها علينا غلبت علينا فكنا قومًا ضالين، فما نفعهم ذلك، وما قبل الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منهم هذا العذر.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... فإن هذا المسلك لو صح لبطلت الديانات جملة، وكان القدر حجة لكل مشرك وكافر وظالم،

ولم يبق للحدود معنى، ولا يلام جانٍ على جنايته ولا ظالم على ظلمه، ولا ينكر منكر أبدًا».

ولهذا قال شيخ الملحدين ابن سينا في إشارته: «العارف لا ينكر منكرًا؛ لاستبصاره بسر الله تعالى في القدر»، وهذا كلام منسلخ من الملل ومتابعة الرسل، وأعرف خلق الله به رسله وأنبياؤه، وهم أعظم الناس إنكارًا للمنكر وإنما أرسلوا لإنكار المنكر، فالعارف أعظم الناس إنكارًا للمنكر لبصيرته بالأمر والقدر، فإن الأمر يوجب عليه الإنكار، والقدر يعينه عليه وينفذه له فيقوم في مقام ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، وفي مقام ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود:١٢٣] فنعبده بأمره وقدره، ونتوكل عليه في تنفيذ أمره بقدره، فهذا حقيقة المعرفة، وصاحب هذا المقام هو العارف بالله، وعلى هذا أجمعت الرسل من أولهم إلى خاتمهم، وأما من يقول:

أصبحت منفعلًا لما يختاره... مني ففعلي كله طاعات

ويقول: أنا وإن عصيت أمره، فقد أطعت إرادته ومشيئته، ويقول: العارف لا ينكر منكرًا لاستبصاره بسر الله في القدر،

فخارج عما عليه الرسل قاطبة وليس هو من أتباعهم.

وإنما حكى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الاحتجاج في القدر عن المشركين أعداء الرسل، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، إلى قوله ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٨-١٤٩]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، إلى قوله ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس:٤٧]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف:٢٠]، فهذه أربع مواضع حكى فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الاحتجاج بالقدر عن أعدائه، وشيخهم وإمامهم في ذلك عدوه الأحقر إبليس، حيث احتج عليه بقضائه، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

فإن قيل: قد علم بالنصوص والمعقول صحة قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ

ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة:١٣]، فكيف أكذبهم ونفى عنهم العلم، وأثبت لهم الحرص فيما هم فيه صادقون؟ وأهل السنة جميعًا يقولون: لو شاء الله ما أشرك به مشرك، ولا كفر به كافر، ولا عصاه أحد من خلقه، فكيف ينكر عليهم ما هم فيه صادقون؟

قيل: أنكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليهم ما هم فيه أكذب الكاذبين وأفجر الفاجرين، ولم ينكر عليهم صدقًا ولا حقًا، بل أنكر عليهم أبطل الباطل، فإنهم لم يذكروا ما ذكروه إثباتًا لقدره وربوبيته ووحدانيته، وافتقارًا إليه، وتوكلًا عليه، واستعانة به، ولو قالوا كذلك لكانوا مصيبين، وإنما قالوه معارضين به لشرعه ودافعين به لأمره، فعارضوا شرعه وأمره، ودفعوه بقضائه وقدره، ووافقهم على ذلك كل من عارض الأمر ودفعه بالقدر.

وأيضًا: فإنهم احتجوا بمشيئته العامة وقدره، على محبته لما شاءه ورضاه به وإذنه فيه، فجمعوا بين أنواع من الضلال: معارضة الأمر بالقدر ودفعه به والإخبار عن الله أنه يحب ذلك منهم ويرضاه حيث شاءه وقضاه، وأن لهم الحجة على الرسل بالقضاء والقدر»[١].

إذًا: متى يجوز للإنسان أن يحتج بالقدر؟ يحتج بالقدر كما ذكرنا في المصائب، وفي الذنوب التي تاب إلى الله ﷻ منها، إذا علم أن توبته مقبولة، أو غلب على ظنه ذلك.

قال النبي ﷺ: «احتج آدم عليه السلام، وموسي عليه السلام عند ربهما، فحج آدم موسى، قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده وفي رواية: ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، **وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض** -وفي رواية خيبتنا وأخرجتنا من الجنة- **فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجيا، فبكم وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التوراة قبل أن**

(١) «شفاء العليل» (٣٩-٤١).

صفحة ٨٠ اسود

أخلق؟ قال موسى: بأربعين سنة، قال آدم: فهل وجدت فيها ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]؟ **قال: نعم. قال آدم: أفتلومني على أن عملت عملًا كتبه الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال ﷺ: فحج آدم موسي**»[١].

أي: غلبه في الحجة، لأن آدم عليه السلام تاب من المعصية، فصارت بمنزلة المصيبة، والقدر إنما يحتج به في المصائب دون المعائب.

فقامت الحجة لآدم عليه السلام على موسى عليه السلام لما احتج بالقدر؛ لأن هذا الذنب كان قد تاب منه، فآدم عليه السلام يعلم أن الله ﷻ قد تاب عليه، كما قال ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢]؛ لأجل ذلك احتج كعب رضي الله عنه وسلى نفسه بالقدر؛ لأنه تاب وتوبته قد قبلت.

قال ابن القيم رحمه الله: «... أن الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع ويضر في موضع، فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه وترك معاودته كما فعل آدم، فيكون في ذكر القدر

(١) رواه البخاري (٣١٥٧، ٦١٢٤)، ومسلم (٤٧٩٣، ٤٧٩٥).

صفحة ٨١ اسود

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١١٢٠٠٤٦١٤٦

إذ ذاك من التوحيد، ومعرفة أسماء الرب وصفاته، وذكرها ما ينتفع به الذاكر والسامع؛ لأنه لا يدفع بالقدر أمرًا ولا نهيًا، ولا يبطل به شريعة، بل يخبر بالحق المحض على وجه التوحيد، والبراءة من الحول والقوة.

يوضحه أن آدم قال لموسى: أتلومني على أن عملتُ عملًا كان مكتوبًا علي قبل أن أخلق؟ فإذا أذنب الرجل ذنبًا، ثم تاب منه توبة، وزال أمره، حتى كأن لم يكن، فأنَّبه مؤنب عليه ولامه، حسن منه أن يحتج بالقدر بعد ذلك، ويقول: هذا أمر كان قد قدر عليّ قبل أن أخلق، فإنه لم يدفع بالقدر حقًا ولا ذكره حجة له على باطل ولا محذور في الاحتجاج به.

وأما الموضع الذي يضر الاحتجاج به ففي الحال والمستقبل، بأن يرتكب فعلًا محرمًا أو يترك واجبًا، فيلومه عليه لائم، فيحتج بالقدر على إقامته عليه وإصراره، فيبطل بالاحتجاج به حقًا ويرتكب باطلًا، كما احتج به المصرون على شركهم وعبادتهم غير الله فقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ

مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]، فاحتجوا به مصوبين لما هم عليه، وأنهم لم يندموا على فعله، ولم يعزموا على تركه، ولم يقروا بفساده، فهذا ضد احتجاج من تبين له خطأ نفسه، وندم وعزم كل العزم على أن لا يعود، فإذا لامه لائم بعد ذلك، قال: كان ما كان بقدر الله.

ونكتة المسألة: أن اللوم إذا ارتفع صح الاحتجاج بالقدر، وإذا كان اللوم واقعًا فالاحتجاج بالقدر باطل»[1].

إذًا: كيف يغلب على ظن أحد أن توبته قبلت من الذنوب الماضية؟ يمكن أن يرجح ذلك بالحال التي صار عليها، كمن كان فاسد الحال، ثم يتوب إلى الله ﷻ، ويظل خائفًا من ذنوبه، ويصير محسنًا بعد إساءته، ويعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد أن كان تاركًا لعبادته، فهذا بلا شك من علامات صدق التوبة، فان عُير يومًا بالذنب الذي ارتكبه، وقد ترك هذا الذنب ولم يزل نادمًا، -كما كان من حال كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وقد صلح حاله، فهذا يرجى قبول توبته، فإذا لامه أحد، أو عيره بهذا الذنب، فيمكنه أن

(١) «شفاء العليل» (٤٦-٤٧).

يقول: لقد تبت إلي الله ﷻ ولا زلت نادمًا، وهذا قدر قد كتبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علي؛ لأنه فعل ما في وسعه وقدرته، فيصير ذنبه بعد التوبة بمنزلة المصيبة.

فلو سرق إنسان وقطعت يده في السرقة، وتاب بعد ذلك وأحسن وصار من العباد، والزهاد، فان لامه أحدٌ على معصيته وسرقته، وعيره بأنه السارق الذي قطعت يده بسبب سرقته، -بعد أن تاب وحسنت توبته- فيمكنه أن يقول هذا أمر قد كتبه الله ﷻ علي، وأنا قد تبت إلى الله ﷻ، ولا زلت نادمًا على هذه المعصية، وهذا من قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فمثل هذا هو الذي يصح له الاحتجاج بالقدر، والله أعلى وأعلم.

قوله رضي الله عنه: «فطفقت إذا خرجتُ في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فَطُفتُ فيهم يحزنني ألا أرى إلا رجلًا مَغْمُوصًا عليه في النفاق، أو رجلًا ممن عذره الله ﷻ».

وهذا يعني: أن الإنسان لابد أن ينظر إلي حال نفسه وحال من حوله من أهله وأصحابه، فقد كان كعب رضي الله عنه يخرج في المدينة ينظر فيرى أناسًا منافقين فقط، أو أصحاب الأعذار ممن

عذرهم الله ﷻ كالأعمى، والأعرج، والمريض، والعاجز، أو من لا يجد نفقة، وقد عذرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهم يحزنون على عدم الخروج مع رسول الله ﷺ، كما قال ﷻ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة:٩٢]، والباقين منافقين.

فإذا وجد الإنسان نفسه في وسط أهل نفاق، وأهل فساد، وأهل ذنوب ومعاصي، فلا شك أن ذلك يحزنه إن كان في قلبه إيمان، أما إن ضعف الإيمان، أو لم يوجد في قلبه، فسيرى أن هذا أمرًا عاديًا لاشيء فيه.

فكعب رضي الله عنه لوجود الإيمان في قلبه، لا يزال يحزنه أنه لا يرى إلا رجلًا مغموصًا عليه في النفاق، يعني: محكومًا عليه بالنفاق، متهمًا بالنفاق، معلومًا عليه النفاق، أو رجلًا ممن عذره الله ﷻ.

****

خطورة الإنشغال بالدنيا

قولـه رضي الله عنه: «**ولم يذكرني رسـول الله ﷺ حتـى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟»**[1] **قال رجلٌ من بني سَلمة: حبسه يا رسول الله بُرْداه**[2]**، والنظر في عَطْفيه**» - جانباه -.

أي: حبسـته ملابسـه والنظر فيها؟ هل هي نظيفة؟ هل هي جميلة؟ فهو عنده ثياب، فذكر الرجل من سبب تخلفه: انشغاله بملابسـه ومنظره، والنظر في عطفيه -يعني: في جانبيه- يتلفت يمينًا وشمالًا، ليرى نفسه على أكمل هيئة أم لا؟ وهذا تعريض مـن هذا الرجل بأن كعبًا غرته الدنيا وانشـغل بها عن أمر دينه، ونسأل الله العافية.

فالإنسان إن شغلته الدنيا عن طاعة الله عز وجل، وطاعة رسوله ﷺ

(١) لأن كعبًا رضي الله عنه كان له شـأن، فهو شـاعر كما ذكرنا، وهو من أهل بيعة العقبة، وله شأن في الأنصار لذا ذكره النبي ﷺ.

(٢) ثوبه.

فهـذا هـو المذمـوم منها، كمـا قـال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤].

وليـس معنى ذلـك أن لا يرتدي الإنسـان ملابـس نظيفة، ولكـن المهم أن لا تكون شـغله الشـاغل، والقضية الأولى في حياته، ويستوي في ذلك الرجل والمرأة، بعض النساء بل صار حتى الشـباب والرجال يقضي السـاعات الطوال أمام المرآة؛ لأن كل ما يشغله ويهمه كيف يراه الناس.

فلو كان هذا الاهتمام بحجمه وبقدره بحيث يخرج في هيئة حسـنة نظيفة، فهذا لاشـيء فيه، كما قال النبي ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»، **قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسـنًا، ونعله حسـنةً، قـال: إن الله جميل**

دار الفاروق الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠٦٤٦

يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس»[١]...

ومعنى بطر الحق: تسفيهه وإبطاله.

وغمط الناس: الاحتقار لهم والازدراء بهم. وفي رواية «**وغمص**» بالصاد المهملة، والمعنى واحد، يقال: غمصه يغمصه غمصًا واغتمصه، أي: استصغره ولم يره شيئًا. وغمص فلان النعمة إذا لم يشكرها.

فليس بحرام أن يلبس الإنسان ملابس حسنة، ولكن القضية أن تكون شغله الشاغل، واهتمامه الأول الذي يترك من أجله طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران].

(١) رواه مسلم (١٣١).

ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [فاطر:٥].

وعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «**كلوا، واشربوا، وتصدقوا، والبسوا ما لم يخالطه إسراف، أو مخيلة**»[١].

«**قال سعيد بن جبير**: متاع الغرور ما يلهيك عن طلب الآخرة وما لم يلهك فليس متاع الغرور ولكنه بلاغ إلى ما هو خير منه.

وقال بعض العارفين: كل ما أصبت من الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم، وكل ما أصبت منها تريد به الآخرة فليس من الدنيا»[٢].

❊ ❊ ❊ ❊

(١) رواه ابن ماجة (٣٦٠٥)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٥٠٥).
(٢) «لطائف المعارف» (١/ ٣٣٣).

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١٢٢٠٠٠٦٤٦

الذب عن عرض المسلم

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«فقال له معاذ بن جبل: بئسما قلتَ! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا!».**

معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدافع عن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو من الأنصار، وكعب أيضًا من الأنصار، ومعاذ يعرف صدقه، ويعرف أن كعبًا من فضلاء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فرد غيبة كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال النبي ﷺ: **«من ذب عن عرض أخيه بالغيبة، كان حقًّا على الله** عَزَّ وَجَلَّ **أن يعتقه من النار»**[1].

وقال ﷺ: **«ما من امرئ يخذل امرءًا مسلمًا في موطن ينتقص فيه من عرضه، وتنتهك فيه من حرمته، إلا خذله الله تعالى في موطن يحب فيه نصرته، وما من أحد ينصر مسلمًا في موطن ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته، إلا نصره الله في موطن يحب نصرته»**[2].

(١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: «رواه أحمد، والطبراني، وإسناد أحمد حسن»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»: (٦٢٤٠).
(٢) رواه أحمد (١٦٣٦٨)، وأبو داود (٤٨٨٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٩٠).

والأصل في ذلك قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢].

والنبي ﷺ وهو في طريقه إلى مكة بركت القصواء، فقال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «خلأت القصواء»، قال النبي ﷺ: «ما خلأت، وما ذاك لها خلق، ولكن حبسها حابس الفيل»[1].

قال الحافظ في الفتح فيما يستفاد من الحديث: «جواز الحكم على الشيء بما عرف من عادته وإن جاز أن يطرأ عليه غيره؛ فإذا وقع من شخص هفوة لا يعهد منه مثلها لا ينسب إليها، ويُرَدُّ على من نسبه إليها، ومعذرة من نسبه إليها ممن لا يعرف صورة حاله»[2]، فقد دافع النبي ﷺ عن القصواء بما عرف عنها من خلق قديم.

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أنه ينبغي لمن سمع غيبة مسلم أن يردها، ويزجر قائلها، فإن لم ينزجر بالكلام زجره بيده، فإن لم يستطع باليد ولا باللسان فارق ذلك المجلس،

(١) رواه البخاري (٢٥٢٩).
(٢) «فتح الباري» (٥/ ٣٣٥) دار المعرفة.

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١١٢٠٠٤٦١٤٦

فإن سمع غيبة شيخه أو غيره ممن له عليه حق، أو من أهل الفضل والصلاح كان الاعتناء بما ذكرنا أكثر»[1].

فكان هذا الفعل من معاذ ﵁ هو الواجب، على رغم أنه لا يعلم عذره، وما جعله يتخلف عن الخروج مع رسول الله ﷺ، لكن ينبغي حمل أمر المسلم على السلامة، وأن يحسن به الظن، وأن نرد غيبته، حتى لو فعل أحيانًا أمرًا لا ندري ما وجهه حتى يتبين حقيقة الحال، وليس أن كل فعل يمكن أن يحمل على حال سيئة أحمله على الحال السيئة، لا سيما إن وجد احتمال لا أعلمه، فأحمله على هذا الوجه والاحتمال الذي فيه الخير، هذا هو الواجب في معاملة المسلم.

قوله ﵁: «فسكت رسول الله ﷺ».

سكت ﷺ؛ لأن فعل معاذ كاف في رد الغيبة، والبعض يستدل بهذا السكوت على قول الرجل الذي قال: (**حبسه يا رسول الله بُرْداه، والنظر في عَطْفيه**) فيمكن أن يكون هذا من الاجتهاد في النصيحة؛ لأن إجابة النبي ﷺ واجبةٌ، فالرجل

(١) «الأذكار» للنووي (٢٩٤).

علم أن كعبًا ﵁ مشغول بأمر دنيوي - ولكنه لم يكن متكبرًا ﵁ - ولم يكن همه الدنيا وإنما كانت زلة من الزلات، فيتأول فعل هذا الرجل على أنه كان يجيب النبي ﷺ بالنصيحة.

والصحيح القول الأول، وهو أن النبي ﷺ اكتفى بإنكار معاذ بن جبل ﵁ على ذلك الرجل ورد غيبة كعب ﵁، وإلا فقد ثبت في حديث عتبان بن مالك وهو من أصحاب رسول الله ﷺ ممن شهد بدرًا من الأنصار أنه أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، قد أنكرت بصري، وأنا أصلي لقومي، فإذا كانت الأمطار سال الوادي الذي بيني وبينهم، لم أستطع أن آتي مسجدهم فأصلي بهم، وودت يا رسول الله، أنك تأتيني فتصلي في بيتي، فأتخذه مصلًى، قال: فقال له رسول الله ﷺ: «سأفعل إن شاء الله».

قال عتبان: فغدا رسول الله ﷺ وأبو بكر حين ارتفع النهار، فاستأذن رسول الله ﷺ، فأذنت له، فلم يجلس حتى دخل البيت، ثم قال: «أين تحب أن أصلي من بيتك»، قال: فأشرت له إلى ناحية من البيت، فقام رسول الله ﷺ فكبر، فقمنا،

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات

فصفنـا، فصلـى ركعتين ثم سـلم، قال: وحبسـناه على خزيرة صنعناهـا لـه، قال: فـآب في البيت رجـال من أهل الـدار ذوو عـدد، فاجتمعوا، فقال قائل منهم: أين مالك بن الدخيشـن أو ابن الدخشن؟ فقال بعضهم: ذلك منافق لا يحب الله ورسوله، فقـال رسـول الله ﷺ: «لا تقل ذلك، ألا تراه قـد قال لا إله إلا الله يريـد بذلك وجه الله؟» قال: الله ورسـوله أعلـم، قال: فإنا نرى وجهه ونصيحته إلى المنافقين، قال رسـول الله ﷺ: «فإن الله قـد حـرم على النار من قال لا إلـه إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»[1] فلما لم يرد أحد على هذا الرجل رد النبي ﷺ عليه.

قولـه رضي الله عنه: «**فلما بلغني أن رسـول الله ﷺ قـد تَوجَّه قافلا راجعًا من تبوك حضرني بَثِّي** «حزني - حضره ولازمه» **فطفقت** - جعلـت - **أتذكر الكَـذب، وأقول: بماذا أخرج من سـخطه غدًا؟ أستعين على ذلك كلّ ذي رأي من أهلي**».

جعل رضي الله عنه يسأل كل واحد من أهله ماذا أفعل لما يأتي النبي ﷺ؟ وكل واحد له رأي وعنده وجهة نظر يسأله ماذا يصنع؟

---

(١) رواه البخاري (٤٠٧)، ومسلم (١٠٥٢).

صفحة ٩٤ اسود

قولـه رضي الله عنه: «**فلما قيل: إن رسـول الله ﷺ قد أظلّ قادمًا، زاح عني الباطل وعرفت أني لم أنج منه بشـيء أبدا، فأجمعتُ صدقه**».

وهذا من عميق وقوة إيمان كعب رضي الله عنه، أيقن أنه لن يستطيع أن يخرج من سخط النبي ﷺ بالكذب؛ لأن الله عز وجل سيبين له؛ لأنه يوقن أنه رسول الله، زاح عنه الباطل وهو احتمال الكذب، فتأكـد لديه أن الكذب ليس مخرجًا، وعزم على الصدق، قال: (**فأجمعتُ صدقه**).

نويتُ أن أكون صادقًا معه، عندما يسـأله عن سبب تخلفه، سيقول: لم يكن عندي عذر، وأن تخلفي ذنب ومعصية.

قوله رضي الله عنه: «**فأصبح رسـول الله ﷺ، وكان إذا قدم من سفرٍ بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس**».

فالمستحب لمن عاد من سفرٍ أن يبدأ بالمسجد فيصلي فيه ركعتين، ثم يستقبل من جاءه من الناس، فقد كان هذا فعله ﷺ «**كان إذا قدم من سـفر ضحى، دخل المسـجد فصلى ركعتين قبل أن يجلس**»[1]

---

(١) رواه البخاري (٢٨٥٨).

صفحة ٩٥ اسود

خطر النفاق والمنافقين

قولـه رضي الله عنه: «**فلمـا فعل ذلـك جـاءه المتخلفـون فطفقوا يعتـذرون إليه ويحلفـون له** -وكانـوا بضعة وثمانيـن رجلًا- **فيقبـل منهـم رسـول الله** ﷺ **علانيتهم ويسـتغفر لهـم، ويكل سرائرهم إلى الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ».

ومـن فوائـد ذلك أن هـؤلاء المنافقيـن الذين كانـوا بضعًا وثمانيـن رجـلًا، نزلـت السـورة - سـورة التوبـة - في شـأن المنافقيـن، كانـوا بضعًا وثمانيـن من ثلاثين ألـف، يعني: كم نسـبتهم في المجتمـع المسـلم؟ نسـبة النفاق ثلاثـة في الألف تقريبًا، أو نحوًا من ذلك (أقل من ذلك).

يعني: أن المجتمع المسـلم نظيف من النفاق بنسـبة تسعة وتسـعين وسـبعة من عشـرة في المائة، ومع ذلك يظهر الخطر الشـديد للنفـاق، والذي من أجله أنزل الله هذه السـورة والتي تسمى «بالفاضحة»، ولو تأملت ذكر النفاق وهو ليس مذكورًا فقط في سـورة بـراءة، بل ذكر في أكثر من سـورة، بـل أنزل الله

سورة كاملة تسمى بسـورة «المنافقون» لأجل أن النفاق خطرٌ عظيم وجسـيم على المجتمـع، وذلك أنه يجر أفـراد أُخر من غير المنافقين للوقوع في النفاق، ولأن ذلك يؤدي إلي انتشـار مرض النفاق، ولأن وجود المنافقين هو إمداد للعدو، فما بال المجتمـع إن كان عامتـه أو أكثره من المنافقيـن، ومن يتولون الأمور فيه من المنافقين، ونسأل الله العافية؟!!.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «....فإن بلية الإسلام بهم شديدة جدًا؛ لأنهم منسبون إليه وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة يخرجون عداوتـه في كل قالب، يظن الجاهل أنه علم وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد.

فلله كم من معقل للإسـلام قد هدمـوه، وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه، وكم من علم له قد طمسوه، وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه، وكم ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسـه؛ ليقلعوها، وكم عموا عيون موارده بآرائهم؛ ليدفنوها ويقطعوهـا، فلا يـزال الإسـلام وأهلـه منهم في محنـة وبلية، ولا يزال يطرقه من شـبههم سـرية بعد سـرية، ويزعمون أنهم

بذلك مُصلحون: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة:١٢].

إن حاكمتهم إلى صريح الوحي وجدتهم عنه نافرين، وإن دعوتهم إلى حكم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ رأيتهم عنه معرضين، فلو شهدت حقائقهم؛ لرأيت بينها وبين الهدى أمدًا بعيدًا، ولرأيتها معرضة عن الوحي إعراضًا شديدًا: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: ٦١]

تبًا لهم ما أبعدهم عن حقيقة الإيمان، وما أكذب دعواهم للتحقيق والعرفان !، فالقوم في شأن وأتباع الرسول ﷺ في شأن، لقد أقسم الله في كتابه بنفسه المقدسة قسمًا عظيمًا يعرف مضمونه أولو البصائر، فقلوبهم منه على حذر إجلالًا له وتعظيمًا، فقال تعالى؛ تحذيرًا لأوليائه، وتنبيهًا على حال هؤلاء وتفهيمًا: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

كره الله طاعاتهم؛ لخبث قلوبهم، وفساد نياتهم؛ فثبطهم عنها وأقعدهم وأبغض قربهم منه وجواره؛ لميلهم إلى أعدائه، فطردهم وأبعدهم، وأعرضوا عن وحيه؛ فأعرض عنهم وأشقاهم وما أسعدهم، وحكم عليهم بحكم عدل لا مطمع لهم في الفلاح بعده إلا أن يكونوا من التائبين، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٤٦].

ثقلت عليهم النصوص؛ فكرهوها، وأعياهم حملها؛ فألقوها عن أكتافهم ووضعوها، وتفلتت منهم السنن أن يحفظوها، فأهملوها، وصالت عليهم نصوص الكتاب والسنة؛ فوضعوا لها قوانين ردوها بها ودفعوها، ولقد هتك الله أستارهم، وكشف أسرارهم، وضرب لعباده أمثالهم، وأعلم أنه كلما انقرض منهم طوائف؛ خلفهم أمثالهم، فذكر أوصافهم لأوليائه؛ ليكونوا منها على حذر، وبينها لهم فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٩]» اهـ[1].

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣١٣- ٣٢٠).

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١١٢٠٠٠٤١٤٦

والنفاق ليس تكذيب الرسول ﷺ في الباطن، أو تكذيب القرآن في الباطن وفقط، ولكنه صفات وأعمال، والإنسان إن لم ينتبه لها دخلت إليه؛ كالكذب في الحديث، وخلف في الوعد، والفجور في الخصومة، ونقض للعهود، الدعوة الجاهلية، والغدر، الرياء، والتكاسل عن الصلاة، وقلة الذكر، وضعف العلم والفقه في الدين، والشك والريب، خصالٌ كثيرة وكلها من خصال النفاق والعياذ بالله، لذلك لابد من الحذر منها وبلا شك أن جيشًا عامته من المنافقين، أو بلدًا أكثره من المنافقين لا يتصور له النجاح ولا الفلاح.

وقوله: «ويستغفر لهم» ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يقبل منه استغفاره لهم لأجل نفاقهم، كما قال ﷻ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلًا للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم سبعين

مرة، فلن يغفر الله لهم.

وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسمًا لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها.

وقيل: بل لها مفهوم، كما روى العوفي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «**أسمع ربي قد رخص لي فيهم، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة، لعل الله أن يغفر لهم**»! فقال الله من شدة غضبه عليهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون:٦].

وقال الشعبي: لما ثَقُل عبد الله بن أبي، انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي قد احتضر، فأحب أن تشهده وتصلي عليه، فقال النبي ﷺ: «ما اسمك؟»، قال: الحباب بن عبد الله، قال: «**بل أنت عبد الله بن عبد الله، إن الحباب اسم شيطان**»، قال: فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق، وصلى

عليـه، فقيل لـه: أتصلـي عليه وهو منافـق؟ قـال: **إن الله قال:** ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ **ولأسـتغفرن له سـبعين وسـبعين وسبعين**».

وكذا روي عن عُرْوَة بن الزبير ومجاهد بن جُبَير، وقتادة بن دِعَامة. رواه ابن جرير بأسانيده»[١].

قولـه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **حتـى جئت، فلما سـلَّمت عليه تبسم تبسُّـم المغضب، ثم قال لي:** «**تعال**».

فالرسـول ﷺ تبسم تبسُّـم الغضبان، فهناك بسمة استبشار وترحيـب، وهناك بسـمة غضبـان، والنبي ﷺ يربـي أصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُم حتى بالإشـارة والابتسـامة، فكعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فهم من تبسم النبي ﷺ أنه غضبان عليه.

قال ابـن القيـم رَحِمَهُ اللهُ: «وكان جُلُّ ضحكه التبسـم، بل كلُّه التبسـم، فكان نهايةُ ضحكِـه أن تبدوَ نواجِـذُه، وكان يضحكُ مما يُضحك منه، وهو مما يُتعجب من مثله ويُسـتغرب وقوعُه ويُستندر.

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٨٨).

وللضحك أسباب عديدة هذا أحدها.

والثاني: ضحِك الفرح، وهو أن يرى ما يسرُّه أو يُباشره.

والثالث: ضحِكُ الغضب، وهو كثيرًا ما يعتري الغضبان إذا اشتد غضبه، وسـببه تعجب الغضبان مما أورد عليه الغضبُ، وشـعورُ نفسه بالقدرة على خصمه، وأنه في قبضته، وقد يكون ضحكُـه لِمُلكه نفسـه عنـد الغضب، وإعراضِـه عمن أغضبه، وعدم اكتراثه به»[١].

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **فجئت أمشـي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي:** «**ما خلَّفك، ألم تك قد اشـتريت ظهرك**»؟ أي: اشتريت البعير الذي ستحمل عليه.

فقلـت: يا رسـول الله، إني لو جلسـت عند غيـرك من أهل الدنيـا لرأيت أن أخرج من سَـخَطه بعذر، لقـد أعطيتُ جَدَلًا. ولكنه والله لقد علمتُ لئن حَدّثتك اليوم بحديث كَذب ترضى به عني، ليوشكن الله يُسْخطك علي، ولئن حدثتك بصدق تَجدُ علـي فيـه، إني لأرجو عقبـى ذلك مـن الله عَزَّ وَجَلَّ، **والله ما كان لي**

(١) «زاد المعاد» (١/ ١٧٥).

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع

عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك».

قال كعب رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: لو جلست عند أحد من أهل الدنيا ملك كان أو رئيس، لزينت له الكلام وجادلته وأتيت بالحجج التي تعذرني عنده ولخرجت من سخطه بذلك، لقد أوتيتُ جدلًا - معرفة بالكلام وحسن البيان -، ولكني لا أفعل ذلك معك، «**والله لقد علمتُ لئن حَدّثتك اليوم بحديث كَذب ترضى به عني، ليوشكن الله يُسْخطك علي**».

فهو رضي الله عنه يعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيده القلوب فهو الذي يقلبها، وأنه هوا لذي يرضي النبي ﷺ أو يسخطه، فلئن فعل وقال ما يرضيه الآن بالكذب، فيوشك الله عز وجل أن يسخط رسوله ﷺ عليه بعد ذلك.

«**ولئن حدثتك بصدق تَجدُ علي فيه**» أي: تحزن وتغضب علي بسبب صدقي في الحديث معك.

«**إني لأرجو عقبى ذلك من الله**» عز وجل: يرجو أن يعقبه الله عز وجل

خيرًا بسبب الصدق؛ لأن الصدق منجاة، والكذب مهلكة، وهو الذي يقوده إلي الفجور والفجور يقوده إلى عذاب الله عز وجل، كما قال النبي ﷺ: «**إن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**»[1].

فاعترف رضي الله عنه وقال: «**والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك**».

فقال النبي ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك» وهذا فيه تعريض بأن غيره لم يكن صادقًا، فيه استعمال مفهوم المخالفة في مفهوم اللقب، وهو نادر، لكن لابد من القرينة التي تدل على صحته، ولكن الأصل في مفهوم اللقب أنه ليس بدليل.

يعني: لو قلت جاء أحمد فهل يعني ذلك أن محمدًا لم يأت؟ لا، إلا لو أن السياق يقتضي ذلك، لو وجد دليل مقترن

(١) رواه البخاري (٥٦٢٩)، ومسلم (٤٧١٩).

بـه، كأن تقول في وقت معاتبة: أحمـد هو الذي أتى، هذا يعني أن غيـر أحمـد لم يأت، وأنـت لا تريد أن تقـول أن غير أحمد لم يأت.

فقولـه: «أما هذا فقد صـدق» فمفهوم الـكلام أن غيره من المعتذريـن لم يَصدُقوا، والنبـي ﷺ علم بعدم صدقهم، وقبل ذلك، ووكل سرائرهم إلى الله ﷻ، وكل إنسان يختار طريقه.

قوله رضي الله عنه: «فقمت وبادرني رجال من بني سـلمة واتبعوني، فقالـوا لـي: والله مـا علمنـاك كنـتَ أذنبـتَ ذنبًـا قبـل هـذا، ولقـد عَجَـزت ألا تكـون اعتـذرت إلـى رسـول الله ﷺ بمـا اعتـذر بـه المتخلفـون فقـد كان كافيـك مـن ذنبك اسـتغفار رسول الله ﷺ لك».

لمـا قام رضي الله عنه من بين يدي رسـول الله ﷺ بادره رجالٌ من بني سلمة، أي: أسرعوا إليه، فلاموه على ما كان من صدقه مع رسـول الله ﷺ، فقد كان يكفيه أن يستغفر له رسول الله ﷺ ما كان من ذنبه، فيغفر له الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى باستغفار رسوله ﷺ له، وهـم في الحقيقة لـم يفهموا حقيقة الأمـر، وأن الله ﷻ قد قال

عـن المنافقيـن: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠].

وكلامهـم هذا لكعب رضي الله عنه ليس له وجـه من الحق: **«والله مـا علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هـذا، ولقد عَجَزت ألا تكون اعتذرت إلى رسـول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون»**؛ لأنه لو فعـل ما قالوا له لما اسـتحق قـول النبي ﷺ لـه: **«أما هذا فقد صدق»**، هذا الصدق الذي كان سببًا في توبة الله عليه.

قولـه رضي الله عنه: «فوالله مـا زالوا يؤنّبوني حتـى أردتُ أن أرجع فأُكذِّب نفسي».

أي: مـن كثـرة إلحاحهـم، هـمَّ رضي الله عنه أن يرجع مـرة أخرى للنبي ﷺ فيخبره كذبًا أنه قد كان له عذر منعه من الخروج معه في الغزوة، ولكنه نسيه! أو نحوًا من ذلك.

****

التأسي بالصالحين

قولـه رضي الله عنه: «ثم قلت لهم: هل لقي هـذا معي أحد؟ قالوا: نعـم، لقيه معـك رجلان، قالا ما قلتَ، وقيـل لهما مثل ما قيل لـك. قلت: فمن هما؟ قالوا: مُرَارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي فذكروا لي رجلين صالحين قد شـهدا بدرًا لي فيهما أسوة».

وهـؤلاء هـم الثلاثـة الذيـن أرادهـم الله عز وجل بقوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ كعـب رضي الله عنه، ومـرارة بـن الربيع رضي الله عنه، وهلال بـن أمية رضي الله عنه، فلما ذكروا له رجليـن صالحين، فيهما قدوة، تأسي بهما.

والأسوة بضم الهمزة وكسـرها بمعنى الائتساء والاقتداء، وتطلـق على الخصلة التـي من حقها أن يؤتسـى ويقتدى بها، وعلى نفس الشخص المؤتسى به.

قـال عز وجل: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا

وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

قـال ابـن كثيـر رحمه الله: «﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾ هذه الآية الكريمة أصل كبير في التّأسّي برسول الله ﷺ في أقوالـه وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر اللّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ النّاس بالتّأسّي بالنّبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربّه عز وجل»[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «من كان مستنًا فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا خير هذه الأمة، أبرها قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٨٣).

محمد ﷺ كانوا على الهدي المستقيم».

فالإنسان ينبغي أن ينظر دائمًا إلي الأسوة الصالحة فيتأسى بها، «**قد شهدا بدرًا**» ومع ذلك وقعا فيما وقع فيه كعب رضي الله عنه.

قوله رضي الله عنه: «**فمضيت حين ذكروهما لي**».

يعني: استمر وثبت على ما صدق النبي ﷺ عليه.

* * * *

وقفة مع الهجر المشروع

قوله رضي الله عنه: «**ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه؛ فاجتنَبَنَا الناس**».

يعني: نهى النبي ﷺ عن كلامهم، وأمر بمقاطعتهم، مقاطعة في الخطاب - المحادثة -، ومقاطعة معنوية، وهذا يدل على جواز هجران أصحاب الذنوب والمعاصي والبدع فوق ثلاث، وأن الثلاث التي قال النبي ﷺ: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال..**»[1]، هو في الحق الشخصي، في حق النفس، وأما في حق الله عز وجل فيجوز فوق الثلاث.

فما كان من خصومة شخصية لا يجوز أن تتجاوز ثلاثة أيام لابد أن يسلم أحدهما على الأخر، ويتصافيا، وأما إذا كان في حق الله عز وجل فحتى يتوب إلى الله عز وجل، وتظهر علامات صدق التوبة بأنه قد تاب وأظهر الندم والاعتراف، ومن علامات ذلك أن يظهر عليه أمارات الصلاح، وأن يتغير سلوكه،

(١) رواه البخاري (٥٧٦٨)، ومسلم (٤٦٤٣).

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١١٢٠٠٠٦٤٦

فتتحول أخطاؤه وذنوبه إلي حسنات.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه للحديث الذي رواه الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن سعيد بن جبير أن قريبًا لعبد الله بن مغفل خذف، فنهاه وقال: أن رسول الله ﷺ نهى عن الخذف وقال: **«إنها لا تصيد صيدًا ولا تنكأ عدوًا، ولكنها تكسر السن وتفقأ العين»** قال: فعاد، فقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ نهى عنه ثم تخذف؟ لا أكلمك أبدًا.[1]:

«فيه هجران أهل البدع والفسوق ومنابذي السنة مع العلم وأنه يجوز هجرانه دائمًا، والنهى عن الهجران فوق ثلاثة أيام إنما هو فيمن هجر لحظ نفسه ومعايش الدنيا، وأما أهل البدع ونحوهم فهجرانهم دائمًا، وهذا الحديث مما يؤيده مع نظائر له؛ كحديث كعب بن مالك وغيره»[2].

قوله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «فاجتنبَنا الناس».

فيه امتثال الصحابة لأمر النبي ﷺ، ودليل ذلك ما فعل أبو قتادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مع كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(١) رواه مسلم (٣٦١٤).

(٢) «شرح النووي» (١٣/ ١٠٧)

وقد روى الإمام البخاري في قصة صلح الحديبية من حديث المسور بن مخرمة، ومروان، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالا: «... إن عروة بن مسعود جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامةً، إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له.

فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمدًا، والله إن تنخم نخامة، إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له»[1].

(١) رواه البخاري (٢٥٢٩).

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١١٢٠٠٠٤٦١٤٦
صفحة ١١٣ اسود
صفحة ١١٢ اسود

قوله رضي الله عنه: «وتغيّروا لنا، حتى تنكرَتْ لي في نفسي الأرضُ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف».

فكعب رضي الله عنه ناشئٌ بالمدينة، ومولودٌ بها، ولكنه من مقاطعة الناس له ومجانبتهم إياه صارت وكأنها غريبة عنه، وهذا من وحشة المعصية، فمن مقاطعة الصحابة رضي الله عنهم، ومجانبتهم إياه، استشعر وكأن الأرض نفسها متنكرة له، بل هي الحقيقة، أن الأرض حقيقة تنكرت له، لأنه لم يكن بعد قد نزلت توبته، وقبول الله عز وجل عذره، فلا يزال هناك تنكر له من الأرض، سبحان الله، هؤلاء الثلاثة من أفاضل الصحابة، ومنهم من شهد بدرًا، ومنهم من شهد بيعة العقبة، وشهدوا أحدًا، والأحزاب، وخيبر والحديبية، شهدوا جميع الغزوات مع النبي ﷺ، وكل هذا بلا شك في ميزان حسناتهم، ومع ذلك لما تخلفوا في هذه الغزوة، تنكرت لهم الأرض.

فما حال الأرض، وتنكر الأرض لمن لم يتب، ولمن لم يكن له هذه الحسنات؟ فأكثر الناس لا يشعرون ونسأل الله العافية، فالأرض نفسها تتنكر وتبغض من يسير عليها من

أهل المعصية، فضلًا عن أهل البدع، فضلًا عن المشركين والكافرين، كما قال الله عز وجل عن قوم فرعون: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩].

فدل ذلك على أن السماء والأرض تبكي على المؤمن، ولا تبكي على الكافر، وكما ثبت عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: مُرَّ على النبي ﷺ بجنازة فقال: «**مُسْتَرِيحٌ، وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ**»، قالوا يا رسول الله: ما المستريح والمستراح منه؟ فقال: «**الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ، وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ**»[1].

فالعباد تستريح منه، والبلاد كذلك تسترح منه، وهذا دليل على أن الأرض لها إدراك، الله سبحانه وتعالى يجعل لها إدراكًا، فالمكان الذي ترتكب فيه من الأرض المعصية يستريح من العاصي والكافر إذا مات، حتى الشجر الذي يأكله ويستظل به، والدواب، حتى النملة في جحرها، والسمك في الماء، كل ذلك يسخط على العاصي والكافر، ولذلك تجد أن البغضاء

(١) رواه البخاري (٦٠٣١)، ومسلم (١٥٧٩).

قد أحاطت به من كل مكان، وعلى قدر المعاصي والذنوب يكون تغير الأرض والناس.

وقوله: «وتغيّروا لنا» دليلٌ على أنه ينبغي للعبد المؤمن أن يتغير لمن أصاب ذنبًا، ولم يعلم عنه توبة، ولابد أن يرى العاصي والمذنب من حال من حوله جفوة وإعراضًا، ليست كحالهم تجاهه عندما كان مطيعًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

وهُجران من أبدى المعاصيَ سنةٌ
وقد قيل إن يردعْه أوجبْ وآكِدِ

وقيل على الإطلاق ما دام مُعلِنًا، ولاقِهْ بوجهٍ مكفهِرٍّ مربَّدِ، ولكن هذا الأمر بمثابة الدواء الذي لا يستعمل إلا مع من يصلح معه، فلا يستعمل مع كل أحد، وهذا ما فعله النبي ﷺ، فهو لم يستعمل هذا الدواء مع البضع والثمانين رجلًا ممن تخلفوا عن رسول الله ﷺ مع علمه ﷺ بعدم صدقهم، فقبل منهم عذرهم وعلانيتهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله ﷻ، ولم يستعمله إلا مع هؤلاء الثلاثة لأنه يصلح معهم.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «... فالهجرة الشرعية هي من

الأعمال التي أمر الله بها ورسوله، فالطاعة لابد أن تكون خالصة لله، وأن تكون موافقة لأمره، فتكون خالصة لله صوابًا، فمن هجر لهوى نفسه، أو هجر هجرًا غير مأمور به، كان خارجًا عن هذا، وما أكثر ما تفعل النفوس ما تهواه؛ ظانة أنها تفعله طاعة لله.

والهجر لأجل حظ الإنسان لا يجوز أكثر من ثلاث، كما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيصد هذا، ويصد هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**»، فلم يرخص في هذا الهجر أكثر من ثلاث، كما لم يرخص في إحداد غير الزوجة أكثر من ثلاث، وفي الصحيحين عنه أنه قال: «تفتح أبواب الجنة كل اثنين وخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا، إلا رجلًا كان بينه وبين أخيه شحناء، فيقال أنظروا هذين حتى يصطلحا» فهذا الهجر لحق الإنسان حرام، وإنما رخص في بعضه، كما رخص للزوج أن يهجر امرأته في المضجع إذا نشزت، وكما رخص في هجر الثلاث...

... فينبغي أن يفرق بين الهجر لحق الله، وبين الهجر لحق نفسه... فـ (الأول) مأمور به و(الثاني) منهي عنه...

وهذا لأن الهجر من (باب: العقوبات الشرعية)، فهو من جنس الجهاد في سبيل الله، وهذا يفعل لأن تكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله، والمؤمن عليه أن يعادي في الله، ويوالي في الله...

... فليتدبر المؤمن الفرق بين هذين النوعين، فما أكثر ما يلتبس أحدهما بالآخر، وليعلم أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك، فإن الله سبحانه بعث الرسل، وأنزل الكتب؛ ليكون الدين كله لله، فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه، والإكرام لأوليائه والإهانة لأعدائه، والثواب لأوليائه والعقاب لأعدائه»[1].

وهذا العلاج وان كان شديدًا إلا أنه علاجٌ نافع ناجع جدًا، فمع أنه يزيد من الكرب والألم، إلا أنه يُفيق الإنسان من غفلته،

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٠٧، ٢٠٩).

وهذا هو المقصود من هذا الدواء؛ أن يقعوا في كرب وشدة، ويستشعروا مدى الجرم والذنب الذي ارتكبوه؛ لأن الإنسان يميل إلى الغفلة، وإلى تهوين الذنب وتحقيره، ويظن أنه دائمًا على خير وعلى طاعة، وأن ما يقع منه من تقصير، وما يرتكبه من معاصي لا شيء، وأنه أفضل من غيره، لذلك كان هذا الدواء الشديد المؤثر؛ ليجعلهم يشعروا بالضيق والكرب، لأن هذا هو الشعور الحقيقي الذي ينبغي أن يكون في القلب المؤمن، أنه عندما يرتكب الذنب يضيق، ويصاب بحالة من الألم تدفعه إلى أن يرجع مرة ثانية إلى الإيمان، فهذا هو حال القلب الصحيح، وأما القلب المريض فلا يشعر بأثر الذنوب ولا بألمها.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وأن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا».

وقال أنس رضي الله عنه: «إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات».

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١١٢٠٠٤٦٤٦

فالذنـوب مؤلمة في الحقيقة، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن للحسـنة ضيـاءً في الوجه، ونـورًا في القلب، وسـعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسـيئة سـوادًا في الوجـه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصانًا في الرزق، وبغضًـا في قلوب الخلـق» ولكن أكثر الناس لا يشـعرون بهذا الأمر، ولا يعرفون من أين يأتيهم الضيق.

فهذا العلاج لكونه علاجًا قويًا، فهو يحتاج أن يستعمل مع مـن كان إيمانه قويًا كذلك؛ ليجدد للقلب إيمانه، وأما ضعاف الإيمان فلا يسـتعمل معهم هذا العلاج، وإلا فهناك صنف من النـاس لو اسـتعملت معه هذا العلاج وهجرتهم لازداد سـوءًا والعياذ بـالله، ويزداد ضلالًا وانحرافًا، من هؤلاء ليتجنبونني؟ ومـن يظنون أنفسـهم حتـى لا يكلمونـني؟ أيتكـبرون علي؟ فلربمـا ترك الالتزام بالكلية، أو تـرك الدين بالكلية، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كهـذا الرجل الذي أسـلم من الروم **وهو جبلـة بن الأيهم، فقد ذكر ابن سعد**: أن رسول الله ﷺ كتب إلى جبلة بن الأيهم

ملك غسـان، يدعوه إلي الإسلام، فأسـلم وكتب بإسلامه إلى رسـول الله ﷺ، وأهدى له هدية ولم يزل مسـلمًا حتى كان في زمان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فبينا هو في سـوق دمشق إذ وطئ رجلًا من مزينة، فوثب المزني فلطمه، فأخذ وانطلق به إلى أبي عبيدة بن الجراح، فقالوا: هذا لطم جبلة، قال: فليلطمه، قالوا: أمـا يقتل؟ قال: لا، قالوا: فمـا تقطع يده؟ قال: لا، إنما أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالقود، قال جبلة: أترون أني جاعل وجهي ندًا لوجه جديٍّ جاء من عمق! بئس الدين هذا، ثم ارتد نصرانيًا وترحل بقومـه حتى دخل أرض الروم»[1]، مثل هذا ينقى منه المجتمع أفضل بلا شك.

ولكـن كما ذكرنا، ليس كل الناس يحتمل مثل هذا الدواء، لوجود بعض الناس ضعاف الإيمان، مما يجعلنا نتحمل منهم ولا نستعمل معهم دواء الهجران.

ولكن في الحقيقة أن هذا الدواء دواء ناجع جدًا؛ لأنه وكما

(١) «مختصر تاريخ دمشق» (٢/ ٢٥٢)، «إمتاع الأسماع» للمقريزي، دار الكتب العلمية (١٤/ ٢٤٩).

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع

صفحة ١٢١ اسود
صفحة ١٢٠ اسود

ذكرنا يشعر الإنسان بمدى جريمته، ومدى ذنبه، ويشعره بضيق، وهذا مطلوب أن يشعر به؛ أن يشعر بهمّ وغمّ الذنب، وإن لم يشعر به فهو بسبب مرض القلب، والذي يعين مرتكب الذنب بهذا الألم والضيق أن يتغير الناس له، لا سيما أهل الإيمان، ويتغير حالهم معه، عما كان قبل وقوعه في المعصية، وهذا الذي يوقظ قلبه إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا**».

وهذه كانت مدة الهجران، خمسون ليلة، «**فأما صاحباي فاستكانا**» قعدا في بيوتهما يبكيان ولا حول ولا قوة إلا بالله بكاءً مستمرًا طيلة خمسين ليلة حزنًا وندمًا، فمن شدة الهم والغم عَجَزا عن الخروج ولم يستطيعا مواجهة الناس، ومن هنا ذهب بعض أهل العلم إلى أن مقاطعة المسلمين لإنسان من أعذار التخلف عن الجماعة، والصحيح أن ذلك إذا وصل به الحال من شدة الغم والهم إلى المرض، وهذا الذي وقع، ليس به حركة إلى شيء، كما سيأتي.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وأما أنا فكنت أشَبّ القوم** - أكثرهم شبابا- **وأجلَدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله** ﷺ **وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم، وأقول في نفسي: حَرّك شفتيه برد السلام علي أم لا؟**».

يعني: أن النبي ﷺ لم يكن يُسمعه رد السلام عليه، والصحيح أنه لم يكن يرد عليه السلام، وهذا دليلٌ على أن هُجران العاصي يقتضي أنه لو سلم لا يُرد عليه السلام، لأن الواجب في رد السلام أن يُسمع الذي سلم، فكونه لم يسمعه دل على أنه لم يرد عليه، فنفسه تقول له: ربما رد السلام سرًا، لكي يقنع نفسه أن هجران النبي ﷺ له لم يصل إلى هذا الحد، ولكن الحقيقة أنه كان هجرانًا تامًا.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ثم أصلي قريبًا منه، وأسارقه النظر** - يعني: ينظر ناحية النبي ﷺ - **فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، فإذا التفت نحوه أعرَض عني**».

يعني: وهذا يبين أنه كان يربي أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حتى بالنظر،

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ١٤٤٦

كما رباهم بالابتسامة، فيعرفون كونه مغضبًا، أو مسرورًا، بنوع تبسمه ﷺ فكذلك بالنظر، ينظر إليه ويعرض عنه، عندما ينظر إلى رسول الله ﷺ يلتفت عنه، وعندما يقبل على صلاته، ينظر النبي ﷺ إليه، فيسارقه النظر وهو في الصلاة، وهذا مما ينهى عنه في الصلاة، ولكن الصلاة صحيحة والنهي للتنزيه.

قوله ﷺ: حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين مَشَيت حتى تسورت - قفزت فوق السور- **حائط أبي قتادة** - وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي - **فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام.**

تأمل ذلك فمع كونه حبيبه، وصديقه، وابن عمه، ومع ذلك لم يرد عليه السلام؛ لأن شرع الله ﷻ مقدمٌ، وطاعة النبي ﷺ مقدمة على الصداقة والقرابة، والحب السابق.

قوله ﷺ: فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدُك الله: هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت. قال: فعدتُ له فنشدته فسكت، فعدت فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم. قال: ففاضت عيناي وتوليت حتى تسوّرت الجدار».

يعني: بكى، وخرج من حديقة أبي قتادة.

مسألة في البيع والشراء مع الكافرين

قال كعب: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبَطِيٌّ من أنباط الشام،- النبطي أي: الفلاح، من أنباط، يعني: من الفلاحين الروم الذين بالشام - ممن قَدم بطعام -بقمح- يبيعه بالمدينة.

وهذا فيه دليلٌ على جواز شراء الطعام من الكفار ولو كانوا حربيين، وأنه يجوز لهم أن يدخلوا بلاد الإسلام بأمان، فهؤلاء التجار كانوا يدخلون إلي بلاد الإسلام على رغم وجود حالة حرب بين المسلمين وبين الروم، فيجوز أن يؤذن لهم بالدخول بأمان ليبيع المسلمين لمصلحة المسلمين، فالبيع والشراء ليس من أمور الموالاة المحرمة، وان كانت هي من جملة الأمور المصلحية، فينظر في قيامها من عدمه - المقاطعة، وعدم المقاطعة - فهذا مبني على المصلحة.

وقد روي البخاري في كتاب البيوع: «باب: الشراء والبيع مع المشركين وأهل الحرب»: عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ ثلاثين ومائةً، فقال النبي ﷺ: «**هل مع أحد منكم طعام**» فإذا مع رجل صاع من طعام، أو نحوه،

فعجن، ثم جاء رجل مشـرك مشعان طويل بغنم يسوقها، فقال النبـي ﷺ: «**بيعًا أم عطيةً؟**» أو قال: «**أم هبةً؟**» قال: لا بل بيع، فاشترى منه شاةً[1].

قـال ابن بطال: «معاملة الكفار جائزة إلا بيع ما يسـتعين به أهل الحرب علي المسلمين»[2].

وقـال شـيخ الإسـلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا سـافر الرجـل إلـى دار الحرب يشـتري منها جـاز عندنا، كما دل عليـه حديث تجارة أبـي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حياة رسـول الله ﷺ إلى أرض الشـام، وهي حينذاك دار حرب، وغير ذلك من الأحاديث، فأما بيع المسلم لهم في أعيادهم ما يستعينون به على عيدهم من الطعام واللباس والريحان ونحو ذلـك، أو إهداء ذلك لهم؛ فهذا فيه نوع إعانة علـى إقامة عيدهـم المحرم، وهـو مبني على أصـل وهو: أنه لا يجـوز أن يبيـع عنبًـا أو عصيـرًا يتخذونـه خمـرًا، وكذلك لا يجوز بيعهم سلاحًا يقاتلون به مسلمًا»[3]

(١) رواه البخاري (٢٤٢٥)، ومسلم (٣٨٣٢).

(٢) «فتح الباري» دار المعرفة (٤/ ٤١٠).

(٣) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢٢٩).

«**يقول: مـن يدل على كعب بن مالك؟** قـال: **فطفِقَ الناس يشيرون له إليّ**».

حتى اسـمه لـم يريدون ذكره بألسـنتهم، فجعلوا يشـيرون لهذا الفلاح الرومي بأيديهم على كعب بن مالك.

قـال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**حتـى جـاء فدفع إلـي كتابًا من ملك غسـان، وكنت كاتبًا** -يعني: يعلم الكتابـة والقراءة- **فإذا فيه: أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هَوان ولا مَضْيَعة، فالحق بنا نُواسكَ**».

وهـذا دليـل على أن هـذه القضية كان لها ضجـة إعلامية، حتـى وصلت وبلغت ملك غسـان أن النبي ﷺ قد هجر ثلاثة من أصحابه، فيرسـل إليه ملك غسـان بهـذا الخطاب يقول له فيه: «**بلغنا أن صاحبك قد جفاك**»

أي: صـار بينك وبينه جفوة[1] فلمـاذا ترضى بأن تكون في دار هوان، والهوان من الخزي، والذل، والضعف، والاحتقار، فكأنه يقول له: لما ترضى لنفسـك أن تكون في دار مهانة، وذل

(١) وجفـا: نبـا عنـه، وتباعـد، ومنه: أنـه ﷺ كان يجـافي عضديه عـن جنبيه في السجود، أي: يباعدهما، والجفاء: البعد، وأجفاه: إذا أبعده. «لسان العرب»

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع

صفحة ١٢٧ اسود
صفحة ١٢٦ اسود

وضعف؟ لماذا ترضى أن يحتقرك صاحبك، ويستخف بك.

«**فالحق بنا نواسك**»، تعال إلينا نواسيك، ونقربك، وهذا دليل على محاولة أعداء الله لتدمير المجتمع من الداخل؛ لأنهم يحاولون أن يستقطبوا بعض الأفراد المقربين من النبي ﷺ، والمدافعين عنه باللسان واليد والسنان، لكي ينضم إلى صفوف الأعداء.

قوله رضي الله عنه: «**فقلت حين قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء**».

هذا بلاءٌ أشد وامتحان أشد، أن يطمع فينا الكافرون، ويطلبوا منا ترك ديارنا؛ دار الهجرة، ونبينا ﷺ، وشرعنا ودِيننا، ونذهب إليهم ونلحق بهم، عد كعب رضي الله عنه ذلك مصيبة وبلاء.

قوله رضي الله عنه: «**فتيممت به التنور فَسَجرته**».

ذهب بهذا الكتاب إلي التنور – الفرن – فحرقه بالنار، وهذا يدل على إحراق كتب البدع، والضلال، والسحر، والكفر، والكتب والمجلات التي تحتوي على المنكرات؛ لأن كعبًا رضي الله عنه أحرق الرسالة حتى لا يقرأها مرة ثانية، ولا يفكر فيها مرة ثانية.

قوله رضي الله عنه: «**حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك**

أن تعتزل امرأتك. قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربها».

وهذه تربية أخرى، حتى ينشغل بالعبادة، أن لا يقترب من زوجته كحال المعتكف، كما قال ﷻ: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]، فلأجل أن يكون أقرب للعبادة، وقلبه أكثر خضوعًا وانكسارًا، مع حاجته لامرأته وهو شاب، فإن عدم وجود الحاجة تجعل الإنسان منكسرًا.

قوله رضي الله عنه: «**وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء**».

فيه سد ذريعة، فالنبي أمره أن لا يقربها، لا أن يرسلها إلى أهلها، فأرسلها إلي أهلها حتى لا تحدثه نفسه بأن يقترب منها، أو يباشر شيئًا منها، إلى أن يقضي الله أمرا.

فقد ثبت عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه أن رجلًا أتى النبي ﷺ قد ظاهر من امرأته فوقع عليها، فقال: يا رسول الله، إني ظاهرت من امرأتي، فوقعت قبل أن أكفر، قال: «وما حملك على ذلك

يرحمك الله؟» قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر، فقال: «لا تقربها حتى تفعل ما أمر الله ﷻ»[١].

وقوله: «الحقي بأهلك» دليلٌ على أن كنايات الطلاق لا تكون طلاقًا بغير نية، فهذه الكلمة من كنايات الطلاق، فلو قال رجل لامرأته: الحقي بأهلك وفي نيته طلاقها طُلقت، وإن لم ينو الطلاق فلا تطلق؛ لذلك قال: «أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربها،..فقال لها: الحقي بأهلك»

قوله رضي الله عنه: «فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله، إن هلالًا شيخٌ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا ولكن لا يقربنَّك»- يعني: لا يباشرك، ولا يجامعك - **قالت: وإنه والله ما به حركة إلى شيء».**

يعني: أنه لا يستطيع الحركة، وكما ذكرنا أن الهم والغم، وكثرة البكاء أعجزته عن الحركة، وهذا الحال الذي يعذر صاحبه في التخلف عن الجماعة، لذلك نقول: أن مجرد هجر

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (٥٦٢٢)، والطبراني في «الكبير» (١١٤٣٥)، الترمذي (١٢٣٩)، وحسنه الألباني (١١٩٩).

الصحابة لهم وعدم خروجهم ليس دليلًا على أن ذلك عذرًا لهم في عدم الخروج للجماعة، فالحديث يبين أن هلالًا رضي الله عنه ليس به حركة إلى شيء، وهذا هو ظاهر الحديث، وأنه يحتاج إلى أحد يخدمه، وربما يضيع إن لم يخدم.

«والله ما يزال يبكي منذ أن كان من أمره ما كان إلى يومه هذا».

وهذا من علامات صدق التوبة، والندم.

قوله رضي الله عنه: «فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه - أي: لتقوم على خدمتك كما كان من حال امرأة هلال بن أمية رضي الله عنه - **قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما أدري ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته، وأنا رجلٌ شاب؟ قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلةً من حين نُهى عن كلامنا قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا».**

فالظاهر أنه كذلك بلغ به من الهم والغم من المرض ما منعه من الخروج للصلاة.

توبة الله على كعب وصاحبيه رضي الله عنهم

قوله رضي الله عنه: «**فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله** عز وجل **منا؛ قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صارخًا أوفى على جبل سَلْع**[1] **يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. قال: فخررتُ ساجدًا، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله** عز وجل **بالتوبة علينا، فآذن رسول الله** ﷺ **بتوبة الله علينا حين صلى الفجر**».

أعلم النبي ﷺ الناس حين صلي الفجر، بنزول هذه الآيات وبتوبة الله عز وجل على كعب رضي الله عنه وصاحبيه رضي الله عنهما وفي بعض الروايات أن ذلك - أي: نزول توبة الله علي الثلاثة - كان في السحر، والنبي ﷺ كان عند أم سلمة رضي الله عنها، وكان في ثلث الليل، وكانت أم سلمة رضي الله عنها كثيرًا ما تذكر كعبًا للنبي ﷺ وتثني عليه خيرًا، فقال لها النبي ﷺ في السحر: «**يا أم سلمة لقد تيب على كعب وصاحبيه**» ثم تلا عليها الآيات، فقالت:

(١) جبل من جبال المدينة يسمي «سلع».

يا نبي الله ألا نبشر كعب بن مالك؟ فقال: «**إذا لا تنامون ليلتكم**».

فلما صلي النبي ﷺ بهم الفجر أخبر الصحابة رضي الله عنهم بتوبة الله سبحانه وتعالى على الثلاثة، وهذا دليل على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا مع الثلاثة في هم وغم، وكلهم كان مشفقًا عليهم لما يعلمون من صدقهم، ويحبون لهم الخير، ولذلك فرحوا جميعًا بتوبة الله سبحانه وتعالى على إخوانهم.

قوله رضي الله عنه: «**فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَل صاحبيّ مبشرون، وركض إلي رجُل فرسًا، وسعى ساعٍ من أسلم وأوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس**».

فكلهم رضي الله عنهم يبحث عن طريقة سريعة يبشرونهم بها، فهذا يظن أن ركوبه فرسًا أسرع، وهذا يظن أن صعوده الجبل وإخباره بصوت مرتفع أسرع، والصوت بلا شك أسرع من الفرس، وهذا فيه استحباب بشارة المسلم بما يسره.

قوله رضي الله عنه: «**فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، فنزعت ثوبي، فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما**

يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما».

وفيه استحباب أن من بشر بخير أن يكافئ من بشره بكسوة أو نحوها.

قوله رضي الله عنه: «**وانطلقت أؤم رسول الله** ﷺ،- أقصده وأتوجه إليه- **وتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنئوني بتوبة الله** عز وجل، **يقولون: لِيَهْنك توبة الله عليك**».

يعني: هنيئًا لك توبة الله عز وجل عليك، وتأمل! أفواج من الناس يأتون لتهنئة كعب رضي الله عنه وصاحبيه رضي الله عنهما، فهي قضية عظيمة، ومنزلة التوبة منزلة عظيمة، ونزول توبة هؤلاء وأن الله عز وجل قد قبل توبتهم أمرٌ عظيم هز المجتمع المسلم.

قوله رضي الله عنه: «**حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله** ﷺ **جالس في المسجد حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله** رضي الله عنه **يهرول، حتى صافحني وهَنَّأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة**».

* * *

حكم القيام للقادم

فيما سبق دليلٌ على مشروعية القيام لاستقبال القادم وتهنئته، ومصافحته، وليس من القيام المذموم، الذي هو لمجرد التعظيم، والأنصار أتوا جميعًا يهنئون كعبًا رضي الله عنه، ولم يقم من المهاجرين إلا طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، لأن الأنصار رضي الله عنهم يعرفون شأن ومكانة كعب رضي الله عنه أكثر من المهاجرين رضي الله عنهم، ولذا لم يقم من المهاجرين إلا طلحة رضي الله عنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لم يكن من عادة السلف على عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، أن يعتادوا القيام كلما يرونه عليه السلام، كما يفعل كثير من الناس، بل قد قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «**لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له؛ لما يعلمون من كراهته لذلك**»، ولكن ربما قاموا للقادم من مغيبه؛ تلقيًا له، كما روي عن النبي ﷺ أنه قام لعكرمة، وقال للأنصار لما قدم سعد بن معاذ: «**قوموا إلى سيدكم**»، وكان سعد متمرضًا بالمدينة، وكان قد قدم إلى

بني قريظة، شرقي المدينة ليحكم في بني قريظة؛ لأنهم نزلوا على حكمه.

والذي ينبغي للناس، أن يعتادوا اتباع السلف على ما كانوا عليه على عهد النبي ﷺ؛ فإنهم خير القرون، وخير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، فلا يعدل أحد عن هدي خير الخلق، وهدي خير القرون إلى ما هو دونه، وينبغي للمطاع أن لا يقر ذلك مع أصحابه، بحيث إذا رأوه، لم يقوموا له إلا في اللقاء المعتاد.

فأما القيام لمن يقدم من سفر ونحو ذلك تلقيًا له، فحسن، وإذا كان من عادة الناس إكرام الجائي بالقيام، ولو ترك ذلك لاعتقد أن ذلك بخس في حقه، أو قصد لخفضه!! ولم يعلم العادة الموافقة للسنة، فالأصلح أن يقام له؛ لأن ذلك إصلاح لذات البين، وإزالة للتباغض والشحناء، وأما من عرف عادة القوم الموافقة للسنة فليس في ترك ذلك إيذاء له، وليس هذا القيام هو القيام المذكور في قوله ﷺ: «**من سره أن يتمثل له الرجال قيامًا، فليتبوأ مقعده من النار**» فإن ذلك أن يقوموا له

وهو قاعد ليس هو أن يقوموا لمجيئه إذا جاء.

ولهذا فرقوا بين أن يقال: قمت إليه، وقمت له، والقائم للقادم ساواه في القيام، بخلاف القيام للقاعد.

وقد ثبت في صحيح مسلم: «أن النبي ﷺ لما صلى بهم قاعدًا في مرضه، وصلوا قيامًا أمرهم بالقعود، وقال: «**لا تعظموني كما يعظم الأعاجم بعضها بعضًا**»، فقد نهاهم عن القيام في الصلاة وهو قاعد؛ لئلا يشبهوا الأعاجم، الذين يقومون لعظمائهم وهم قعود»[1].

وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «... نقل عن أبي الوليد بن رشد أن القيام يقع على أربعة أوجه: **الأول محظور**: وهو أن يقع لمن يريد أن يقام إليه تكبرًا وتعاظمًا على القائمين إليه، **والثاني مكروه**: وهو أن يقع لمن لا يتكبر ولا يتعاظم على القائمين، ولكن يخشى أن يدخل نفسه بسبب ذلك ما يحذر، ولما فيه من التشبه بالجبابرة.

والثالث جائز: وهو أن يقع على سبيل البر والإكرام لمن

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٧٤-٣٧٥).

لا يريد ذلك، ويؤمن معه التشبه بالجبابرة.

والرابع مندوب: وهو أن يقوم لمن قدم من سفر فرحًا بقدومه ليسلم عليه، أو إلى من تجددت له نعمة فيهنئه بحصولها، أو مصيبة فيعزيه بسببها....

وقال البيهقي: القيام على وجه البر والإكرام جائز، كقيام الأنصار لسعد وطلحة لكعب، ولا ينبغي لمن يقام له أن يعتقد استحقاقه لذلك، حتى إن ترك القيام له حنق عليه أو عاتبه أو شكاه....

....**وقد قال الغزالي**: القيام على سبيل الإعظام مكروه، وعلى سبيل الإكرام لا يكره، وهذا تفصيل حسن» [(١)].

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فلما سلمت على رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال وهو يبرُق وجهه** - ينير كالبرق - من السرور: «**أبشر بخير يوم مَرّ عليك منذ ولدتك أمّك**»، **قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا بل من عند الله»، قال: وكان رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر** -كأنه قطعة من

(١) «فتح الباري» (١١/ ٥٤-٥٦).

القمر- **حتى يعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله** - يعني: أترك مالي كله صدقة لله عَزَّ وَجَلَّ ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتصرف فيها ويضعها حيث شاء -، **قال: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خيرٌ لك»**.

يعني: لا تتصدق بكل المال ولكن تصدق ببعضه، وفي ذلك دليلٌ على أن من تجددت له نعمة أن يتصدق.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر. وقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا ما بقيت، قال: فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أحسن مما أبلاني الله** عَزَّ وَجَلَّ».

فيه نسبة النعمة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، «**أبلاني الله** عَزَّ وَجَلَّ **به**» يعني: وفقني أن أكون صادقًا، اختبره بذلك، فكان صادقًا دائمًا.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**والله ما تعمدتُ كَذبَةً منذ قلت ذلك لرسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله** عَزَّ وَجَلَّ **فيما بقي**».

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع

قال: وأنزل الله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

قال كعب رضي الله عنه: فوالله ما أنعم الله سبحانه وتعالى على من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظمَ في نفسي من صدقي رسولَ الله ﷺ يومئذ ألا أكون كَذَبْتُه فأهلك كما هلك الذين كَذَبوه حين كَذَبُوه؛ فإن الله عز وجل قال للذين كَذَبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد».

قال الله عز وجل: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة].

قال رضي الله عنه: «وكنا خُلِّفنا – أيها الثلاثة – يعني: أخرنا وأرجأنا – عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسولُ الله ﷺ أمرَنا حتى قضى الله عز وجل فيه، فبذلك قال الله عز وجل: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خُلِّفنا بتخلفنا عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه».

* * * *

دار العلماء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١١٢٠٠٤٦٤٦

عظمة القرآن

والمتأمل في هذه الآيات، يرى أن طريقة القرآن طريقة فريدة وعظيمة، تبين لنا ما ينبغي أن نهتم به، ونركز عليه، فهذه القصة من أجمل القصص، و القرآن ذكرها في أسطر معدودة، وذكر فيها أحوالًا أساسية؛ لنستبين منها ما هو المهم في الشرع، وما هو أعظم عند الله ﷻ.

فتميز القرآن بهذه الطريق من أعظم معجزاته؛ معجزات البيان في القرآن، أنه يلفت نظر وقلب الإنسان إلى قضايا معينة بعينها، لا يوجد من ينبهه إليها كتنبيه القرآن، ومن يرشده إليها كإرشاد القرآن، في قضايا الإيمان والاعتقاد وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح كذلك، لكنه يركز على قضايا الإيمان بالله واليوم الآخر، ومعرفة الله بأسمائه وصفاته، ولا يوجد له نظير في أي كتاب من كتب أهل الأرض.

فالناس إذا قرأت كلامهم - وأنت بين يديك ملايين الكتب والمجلات - يركزون على أشياء معينة في أنواع العلوم

المختلفة، وبما في ذلك ما كتب في الدين، فإذا قرأت في أي جريدة أو مجلة، فماذا يهتم الناس به؟ وإلى ماذا يدفعون إلى التفكير فيه؟ وانظر إلى أحاديث الناس، في ماذا يتحدثون؟ إلى ماذا يطمعون ويطمحون؟ وفي ماذا يفكرون؟ تعرف فضيلة القرآن، وأنه لا يمكن أن يكون كمثله كتاب أبدًا.

فالناس في الغالب لا يتكلمون إلا في أتفه الأشياء، ويبحثون ويوجهون إلى أحقر الشهوات، التي يعلمون أنها سرعان ما تزول أسرع زوال، ولكنهم لا يفكرون في ذلك، يدفعون وينشغلون بالتفكير إلى أنواع اللباس، والمأكل والمشرب والمركوب، وأنواع النساء التي يُنظر إليها، أنواع الشهوات والنزوات، والرياسة والمال والسلطان، والنزاعات على ذلك، سفك الدماء والحكايات والقصص، ربما تمسك بالكتاب فتجده من أوله لآخره لا يذكرك بقضية من القضايا التي يذكر بها القرآن.

لذلك: عندما نحاول أن نبين ما بينه القرآن من قضايا الإيمان بالأسماء والصفات والإيمان بالقضاء والقدر، من

شـهود أفعال الله ﷻ وأثرها في أفعال العبـاد وأثرها في الكون، مـن الاهتمام بأحـوال القلب، وهذا الذي نريـد أن نبينه، حتى يتبين لك إعجاز القرآن.

حتى لو قارنته بالكتب المتقدمة المنسوبة إلى الوحي والتي أنزلت من عند الله وفيها شـيء من الحق، هذا الحق الذي فيها مرده إلى هذه القضايا، إلى أنه يذكر الإنسـان بالبداية والنهاية، وخلق الإنسـان والموت، والبعث والنشور والنبوة والملائكة والقـدر والزهد في الدنيا، ونحو ذلـك من المعاني، فهذا الخير الذي فيها هو الذي جعل أهل الكتاب بالنسبة لغيرهم من أهل الملل خيرًا منهم بكثير وهم أقرب إلى الاسـتجابة، إن لم يكن قـد طمس علـى بصائرهم بسـبب الإعراض عـن الحق، لكن تجـد هذه المعـاني والقضايا في القرآن ناصعـة جدًا، فلا يوجد لـه مثيل في البيان، وفي القوة والوضوح، وفي دفع الإنسـان كي يفكر في قلبه، وأحوال نفسه.

❊❊❊

أحوال إيمانية في قصة الثلاثة

كيـف أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكر من أحـوال القلب، التي وقع البيـان لهـا بأعظم بيـان، ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ثلاثة أمـور من حال الثلاثة الذين خلفوا من داخل أنفسهم.

هذه الأمور الثلاثة: هي قوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾، وقولـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾، ثلاثة أحوال قلبية مبنية على الاعتقاد والسلوكيات.

الحالة الإيمانية الأولى:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ الشعور بتنكر الأرض كما ذكر كعب رضي الله عنه، فالأرض واسـعة ومع ذلك لا يرى الإنسان لنفسه مسلكًا فيها إلا من خلال الدين، وإلا من خلال الطاعة، وإذا ضاقت عليه مسالك الطاعة فبسبب ذنوبه.

فمسالك الطاعة أصلًا واسعة وسهلة وبلا مشقة ولا تعب،

ولكن تحصل المشقة والتعب فيها بسبب فعل الإنسان، وهذا ابتلاء من الله ﷻ لعبده، إما بتعمد أو بخطأ أو نسيان، لكي يثبت الإنسان على الطاعة، ولكي يتسع الأمر بعد ذلك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ هل يستطيع واحدٌ من الثلاثة، وهل وقع في خلده وفي تفكيره أن ينتقل من أرضه إلى أرضٍ واسعة أخرى؟ قطعًا لم يفكر واحدٌ منهم في ذلك، بل عد هذا من البلاء، عندما تصل إليه رسالة الملك الكافر: «**فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هَوان ولا مَضْيَعة، فالحق بنا نُواسكَ**»، قال: فقلت حين قرأتها: «**وهذا أيضًا من البلاء**»، وضاق عليه كل واسع في الأرض، إلا أن يسير في هذا الدين رغم ما يجد من مصاعب فيه، وأن أهله معرضون عنه، ولا يدري ماذا يُصنع به.

فنحن الآن مستريحون؛ لأننا قد علمنا نهاية القصة، وعلمنا أنها انتهت بالنهاية السعيدة لكل مؤمن، وهو أن هؤلاء الثلاثة قد تاب الله عليهم وغفر لهم، وعادوا إلى دائرة الحب والود والألفة مع المؤمنين، والمؤمنون كانوا كلهم قلقين من هذه

المسألة، لا يدرون ماذا يصنع الله ﷻ بهؤلاء الثلاثة، وقد أرجئوا، وأخروا، وقد أنزل الله قبل ذلك ما يجعل أمر توبة الله عليهم أمرًا محتملًا ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٦].

فالله ﷻ لم يختمها بوالله غفور رحيم، ولكن ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، فكان الأمر يمثل لهؤلاء الثلاثة نوعًا من القلق والخوف، ومع ذلك اختاروا أن يتحملوا الضيق.

فهل ندرك هذا الحال القلبي، وهو أن يري الإنسان أن الأرض لا تتسع في نظره إلا بمشقة بالغة، وضيق بالغ رغم سعة الأرض، ووجود البدائل، ومع ذلك فهو لا يختار إلا الطاعة مهما كلفه ذلك، ومهما تحمل في سبيله من أنواع الآلام، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾.

وهذا الضيق إنما كان كذلك بسبب سلوك المؤمنين المثالي في الامتثال والطاعة للنبي ﷺ، وهو أنهم امتثلوا أمره في الهجران، ولو كان وقع مخالفة لبعضهم لما وجد الثلاثة

هـذا الضيق، وهـذا الضيق في الحقيقة كان سـببًا للسـعة، كان تمحيصًـا للإيمـان وتخليصًا له من الشـهوات التي علقت به، ومـن التعلق بالدنيا الذي علق به، إرادة الدنيا التي دفعتهم إلى التخلـف والكسـل عن طاعـة الله ﷻ، فحين علقـت بإيمانهم احتاجوا إلى التمحيص.

تصـور لو كان هناك أحـدٌ من المؤمنين يكلم هؤلاء سـرًا! أو كان يلين لهم بعض اللين، لربما وجدوا الأمر واسـعًا، ولما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، لوجدوا احتمال مقامهم في دار الهجرة والإيمان، دون أن يشعروا بهذا الضيق.

ولذلـك نقول: أن سـلوك أهل الإيمان مـن الصحابة رضي الله عنهم هو الذي أدى إلي أن يصل شعور هؤلاء الثلاثة بضيق الأرض عليهـم بما رحبت، كما قال كعـب رضي الله عنه: «**حتى تنكرَتْ لي في نفسي الأرضُ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف**».

فسـلوكهم رضي الله عنهم كان من أهم الأسـباب التي أدت إلي هذا الضيق الذي كان لابد منه؛ ليحصل الفرج بعد ذلك.

فهـذا حال إيمـاني لابد منه، سـببه كما ذكرنا ابتـداءً ذنوب

العبد، فهي التي تضيق عليه الواسـع، وأهـل الإيمان يعاونون على ذلك بإنكار المنكر، والتغير لمن عصى الله ﷻ، وهذا أمرٌ كثير من الناس يهمله ولا يهتم به، ولا يعبأ به كذلك، وربما إذا ضاق به الحال مع بعض أهل الإيمان، وكان ينبغي له أن يقف عنـد هذه المسـألة جيدًا، يقف كثيرًا وطويلًا، ويسـأل نفسـه: لماذا يضيق مني أهل الإيمان؟ لماذا يتغيرون علي؟.

فالأغلـب الأعـم مـن النـاس، والكثيـر منهـم ولا حـول ولا قـوة إلا بالله، إمـا أن يعرض، «**لا يريدون أن يتكلموا معي، أنـا لا أريدهم**»، «**على أي شـيء يتعالون علي؟**» ويرى نفسـه لا يحتاج إلى أحد.

فأهل الإيمان الصادقون لا يمكن أن يفكروا بهذه الطريقة، ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ لمـاذا؟ لأنهـم لا يمكـن أن يجـدوا لهم بديلًا عن أهل الإيمـان، ولا يمكن أن يجدوا لهم بديلًا عن أهل الطاعة، وتغير أهل الإيمان لهم يجعلهم يقفون مع أنفسـهم وقفات يحاسبون فيها أنفسهم حسابًا طويلًا، لابد أن يقع ذلك.

وكما ذكرنا أهل الإيمان كانوا يدًا واحدة، وطريقة واحدة، امتثلوا أمر النبي ﷺ وتغيروا لمن فعل المنكر، فهل لو قارنا بين مجتمعنا، سواء الضيق أو الواسع، الصغير أو الكبير أعني مجتمع الملتزمين، والمجتمع العام، نجد فرقًا هائلًا بين هذين المجتمعين مجتمع الملتزمين، فضلًا عن المجتمع العام من ناحية، وبين مجتمع الصحابة رضي الله عنهم من ناحيةٍ أخرى، فسنشعر فعلًا أننا في سفح الجبل، وهم في قمته في مسألة الامتثال لأمر النبي ﷺ.

وفي حال هؤلاء الثلاثة رضي الله عنهم هذا الحال القلبي الذي ينبغي أن نقف عنده طويلًا، أنهم ما اختاروا بديلًا، فقد كان أمرًا شديدًا عليهم أن يتغير عليهم أهل الإيمان، وعلموا أن هذا الأمر بسبب أنفسهم، فردوا الأمر إلى أنفسهم، هذا الذي يتمحص به القلب، وهذا الذي يخرج به من الضيق إلي السعة.

ولو وقع خللٌ في المقاطعة والهجر، لما كانت النفوس لامت وعاتبت أصحابها، ولما وجدوا ندمًا كهذا الندم؛ لأنه يجد سعة؛ هذا في خصام معي أذهب إلى غيره، والنفس

الإنسانية تميل إلى تعليق الأخطاء على الآخرين، وأن الآخرين هم المقصرون، وهم الذين أساءوا وأنا المحسن، فهذه طبيعة إنسانية، إلا من هَذُب ونقي وأصلحه الله عز وجل في داخله لكي ينظر في أن تغير أهل الإيمان هو تغير ينبئك عما أنت عليه عند الله عز وجل، لأن هؤلاء شهداء الله في أرضه، كما ثبت في الصحيحين عن أَنَسَ بْنَ مَالِك رضي الله عنه قال: مروا بجنازة فأثنوا عليها أي: الصحابة رضي الله عنهم خيرًا، فقال النبي ﷺ: «**وجبت**» -وفي مسلم: وجبت وجبت وجبت-، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرًا، فقال: «**وجبت**»، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه فدًى لك أبي وأمي، ما وجبت؟ قال: «**هذا أثنيتم عليه خيرًا فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرًا فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض**»، وفي مسلم: «**أنتم شهداء الله في الأرض أنتم شهداء الله في الأرض أنتم شهداء الله في الأرض**»[1].

وقال هرم بن حيان: «ما أقبل عبدٌ بقلبه على الله إلا أقبل الله بقلوب أهل الإيمان إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم».

(١) رواه البخاري (١٢٧٨)، ومسلم (١٥٧٨).

فاحـذر أن تهمل تغير أهل الإيمان عليـك، واحذر أن ترى غيرهـم بديلًا عنهم، واحذر أن ترى السـعة في غير مجتمعهم، ولو كان واسـعًا فإنه ضيق، فلا بديل عن طاعة الله ﷻ ولا عن صحبـة أهل طاعـة الله ﷻ، واجعل نظرتهم إليـك ميزانًا لأنهم مرآتـك، فأنت ترى فيهم عيوبك، فلو منعت نفسـك من النظر في هـذه المرآة منعت نفسـك من أنواع الخيـر، فلابد أن تفكر لماذا تغيروا؟ ولا تظنن في نفسك أنهم هم المقصرون.

نعـم أهـل الإيمـان في زمـن النبـي ﷺ موجهـون بالوحي وبأوامر النبي ﷺ، ولكن في كمّ الصدق الذي يكون عند طائفة منهـم يكونون كذلك، فهم يـرون بالبصيرة التي يجعلها الله في قلوبهـم، والعـبرة في ذلـك في الخُلَص منهم، والعـبرة في ذلك بأهل السنة والجماعة، وأهل الاستقامة اعتقادًا وسلوكًا، عبادة وعملًا، فإذا نظرت إلى هؤلاء ووجدت تغيرًا فراجع نفسـك، وإيـاك أن تحمل عليهم دون أن تحمل على نفسـك، بل لو لم يتغيـروا لك لكانوا قد قصـروا في نصيحتك، فلـو فعلت خطأ ولـم يتغيروا لـك وظلوا على نفس الحال معـك، لكان حكمًا

منهـم عليك بأنك فيك من النفاق ما فيك، فيعاملوك بما عامل الصحابـة بأمـر النبي ﷺ المنافقيـن، بأن قبـل العلانية ووكل السـرائر إلى الله ﷻ ولم يتغيـر لهم؛ لأن هؤلاء لا يصلح فيهم ذلك، أو أنهم قصروا في نصيحتك.

فلابد أن يضيق على المؤمن أن إخوانه الصادقين قد تغيروا له وقد تنكروا له، وأن الأرض بما رحبت ضيقة بسـبب سلوك المؤمنيـن، لا يرى بديـلًا عنهم، الأرض واسـعة لكنه لا يرى لـه أرضًا إلا أرض أهل الإيمان، ولا يـرى له صحبة يمكن أن تُصحـب في الدنيا، ولا فيما بعدها إلا صحبة أهل الإيمان، لذا تضيق الأرض بمـا رحبت، وهذا حال إيماني عجيب الشـأن، وهو كما ذكرنا مقدمة الفرج.

الحالة الإيمانية الثانية:

وأمـا الأمر الثاني والحـال الثاني: فهـو قوله ﷻ: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ وهـذا نتيجـة المحاسـبة والمراقبة، ونتيجة المعاتبة الطويلة أنه يضيق من نفسـه، نظر إلى نفسـه فمقتها في

الله ﷻ، وهـذا عكس حال إبليس تمامًـا، النفس المقصود بها العيوب والنقائص الإنسـانية التي سببت المعاصي والذنوب، فالنفس الإنسـانية تحتاج إلى تشـريح وأن ينظر الإنسـان إلى دخائلها؛ لأنهـا مليئة بأنواع النقائص، ودائمًا ما تسـتر وتغطي حتـى عن صاحبهـا، إلا أن يجلس مع نفسـه يفتـش فيها؛ لأن نفسه الجاهلة الظالمة، والتي لم تكس بلباس التقوى والعدل، دائمًـا تقول له ما قال إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١٢] تقول لـه: أنـت الأمثل، وأنـت الأفضـل، وأنت الأعلـم، وأنت كل شيء، والعياذ بالله.

فهذه النفس عندما ينظر إليها الإنسان فيرى عيوبها فيمقتها لله ﷻ فتضيـق عليه نفسـه، وهذا الضيق سـببٌ للفـرج، وهذا الضيـق يحبه الله ﷻ ويوسـع على صاحبه؛ لأنـه يريد منك أن تكـون نادمًـا متألمًا مـن عيوبك، ولسـت غافلًا عنهـا، فهناك من لا يفكر في خطئه أبدًا، أو يحاسـب نفسـه أبدًا، يسـير هكذا لا يتدبر ما يصنع، ولا يفكر فيما قدم وأخر.

قال ﷻ: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢].

قال الحسـن رَحِمَهُ اللَّهُ **في تفسير هذه الآية:** «لا يُلقى المؤمن إلا يعاتب نفسـه: مـاذا أردتُ بكلمتي؟ مـاذا أردتُ بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قُدُمًا لا يعاتب نفسه».

ويصـف رَحِمَهُ اللَّهُ **المؤمـن بقولـه:** «المؤمـن قوّام على نفسـه يحاسـبها لله، وإنّما خفّ الحسـاب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنّما شـق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة».

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسـكم قبـل أن توزنوا، فإنـه أخف عليكم في الحسـاب غدًا أن تحاسـبوا أنفسـكم اليوم، وتزيّنوا للعرض الأكبر: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾».

وقـال مالـك بن دينـار رَحِمَهُ اللَّهُ: «رحـم الله عبدًا قال لنفسـه: ألسـت صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم زمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله ﷻ، فكان لها قائدًا».

ويقـول ميمون بن مهران: «إنه لا يكـون العبد من المتقين، حتى يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة شريكه».

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ١٤٤٦

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أضرّ ما على المكلّف الإهمال وترك المحاسبة، والاسترسال، وتسهيل الأمور وتمشيتُها؛ فإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذا حال أهل الغرور؛ يغمض عينيه عن العواقب، ويمشّي الحال، ويتكل على العفو، فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة، وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب وأنسَ بها وعسر عليه فطامها»[1].

وقال الامام الغزالي في رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَعَرف أربابُ البصائر من جملة العباد أنّ الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون في الحساب ويُطالبون بمثاقيل الذرّ من الخطرات واللحظات، وتحقّقوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطاء إلا لزوم المحاسبة وصدقُ المراقبة ومطالبةُ النّفْس في الأنفاس والحركات، ومحاسبتُها في الخطرات واللحظات، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خفّ في القيامة حسابُه، وحَضَرَ عند السؤال جوابُه، وحسُن منقلبُه ومآبُه، ومن لم يحاسب نفسَه دامت حسراتُه، وطالت في عرصات القيامة وقفاتُه، وقادته إلى

(١) «إغاثة اللهفان» دار المعرفة (٨٢).

الخزي والمقت سيئاتُه»[1].

فهناك من إذا حاسب نفسه حاباها، ومال مع نفسه وداهنها وجعلها دائمًا هي المصيبة وغيره هو المخطئ، وهذا يترتب عليه أن لا تعالج عيوبه، أن تظل عيوبه لا تعالج، إلى أن يتفاقم المرض فيهلك، ونسأل الله العافية.

وهذه السلوكيات ليست من سلوكيات أهل الإيمان، فالسلوك الإيماني المطلوب هو أن يفتش في عيوب نفسه، ويعلم أن هذه الذنوب والمعاصي والآثام مصدرها الظلم والجهل الذي في النفس، فيمقت نفسه في ذات الله عَزَّ وَجَلَّ، ويكره هذه العيوب ويتمنى أن يتخلص منها، ويعاني معاناة الولادة؛ ولادة النفس من ظلمات الجهل والظلم، لأنه يسعى إلى أن يولد القلب من هذه الظلمات، فعند ذلك يشعر بالضيق شأن الولادة تمامًا ثم يعقب ذلك الفرج، فيخرج الوليد إلى السعة بعد أن كان في ضيق، فكذلك القلب، تضيق عليه نفسه ليولد القلب ميلادًا جديدًا، وحتى تحيا نفسه بالعلم والعدل الذي

(١) «الإحياء» دار المعرفة (٤/ ٣٩٣).

أنزله الله ﷻ ولابد من أن تضيق عليه نفسه في هذه المدة.

قال ابن القيم رحمه الله: «فإن سائر أمراض القلب إنما تنشأ من جانب النفس، فالمواد الفاسدة كلها إليها تنصب، ثم تنبعث منها إلى الأعضاء، وأول ما تنال القلب؛ وقد كان رسول الله ﷺ يقول في خطبة الحاجة: «**الحمد لله، نستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا..**»[1].

وقد استعاذ ﷺ من شرها عمومًا، ومن شر ما يتولد منها من الأعمال، ومن شر ما يترتب على ذلك من المكاره والعقوبات، وجمع بين الاستعاذة من شر النفس ومن سيئات الأعمال...

وقد اتفق السالكون إلى الله على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه لا يُدخل عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا يوصل إليه إلا بعد إماتتها وتركها بمخالفتها والظفر بها.

(١) رواه الترمذي (١١٠٥) وقال: «حديث حسن» وصححه الألباني.

فإن الناس على قسمين: قسمٌ ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته وصار طوعًا لها تحت أوامرها، وقسمٌ ظفروا بنفوسهم فقهروها، فصارت طوعًا لهم منقادة لأوامرهم.

قال بعض العارفين: انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم، فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات].

فالنفس تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، والرب يدعو عبده إلى خوفه ونهي النفس عن الهوى، والقلب بين الداعيين، يميل إلى هذا الداعي مرة، وإلى هذا مرة، وهذا موضع المحنة والابتلاء....

فالنفس إذا سكنت إلى الله، واطمأنت بذكره، وأنابت إليه، واشتاقت إلى لقائه، وأنست بقربه، فهي مطمئنة، وهي التي يقال لها عند الوفاة ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر].

قال ابن عباس رضي الله عنه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ يقول: المصدقة.

وقال قتادة: «هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله».

وقال الحسن: «﴿ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ بما قال الله والمصدقة بما قال».

وقال مجاهد: «هي المنيبة المخبتة التي أيقنت أن الله ربها، وضربت جأشًا - أي: قرت عينًا واطمأنت - لأمره وطاعته، وأيقنت بلقائه».

وحقيقة الطمأنينة: السكون والاستقرار، فهي التي قد سكنت إلى ربها وطاعته وأمره وذكره، ولم تسكن إلى سواه، فقد اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره، واطمأنت إلى أمره ونهيه وخبره، واطمأنت إلى لقائه ووعده، واطمأنت إلى التصديق بحقائق أسمائه وصفاته، واطمأنت إلى الرضى به ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، واطمأنت إلى قضائه وقدره، واطمأنت إلى كفايته وحسبه وضمانه، فاطمأنت بأنه وحده ربها وإلاهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كله وأن

مرجعها إليه، وأنها لا غنى لها عنه طرفة عين.

وإذا كانت بضد ذلك فهي أمارة بالسوء تأمر صاحبها بما تهواه من شهوات الغي، واتباع الباطل، فهي مأوى كل سوء، وإن أطاعها قادته إلى كل قبيح وكل مكروه.

وقد أخبر سبحانه أنها أمارة بالسوء، ولم يقل (آمرة) لكثرة ذلك منها، وأنه عادتها ودأبها إلا إذا رحمها الله وجعلها زاكية تأمر صاحبها بالخير، فذلك من رحمة الله، لا منها.

فإنها بذاتها أمارة بالسوء؛ لأنها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة - إلا من رحمه الله - والعدل والعلم طارئ عليها بإلهام ربها وفاطرها لها ذلك، فإذا لم يلهمها رشدها بقيت على ظلمها وجهلها، فلم تكن أمارة إلا بموجب الجهل والظلم،فلولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكت منهم نفسٌ واحدة.

فإذا أراد الله سبحانه بها خيرًا جعل فيها ما تزكو به وتصلح من الإرادات والتصورات، وإذا لم يرد بها ذلك تركها على حالها التي خلقت عليها من الجهل والظلم.

وسبب الظلم إما جهل، وإما حاجة، وهي في الأصل جاهلة، والحاجة لازمة لها، فلذلك كان أمرها بالسوء لازمًا لها إن لم تدركها رحمة الله وفضله.

وبهذا يعلم أن ضرورة العبد إلى ربه فوق كل ضرورة، ولا تشبهها ضرورة تقاس بها، فإنه إن أمسك عنه رحمته وتوفيقه وهدايته طرفة عين خسر وهلك»[1].

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ وهذا الذي يدفع إلى الندم، والبكاء والخشية من الله ﷻ، خشية أن يكون الإنسان معذبًا هالكًا، فهذه أحوال قلبية لابد أن نفتش فيها، وننظر إلى أنفسنا: ما الذي يجب علينا أن نفعله إذا وقع منا ذنب؟ وهل نجلس مع أنفسنا نحاسبها أم أننا نسير هكذا مطمئنين، وأننا أفضل الأفضلين، والناس من حولنا هالكين، وليس علينا من تقصير وإنما التقصير من غيرنا؟!! فكل هذه الأمور هي التي تمرض القلب الإنساني وتهلكه والعياذ بالله، وتجعل النفس الأمارة بالسوء متسلطة عليه، وتفسد العلاقة بين الناس، وتؤدي إلى

(١) «إغاثة اللهفان»: (٦٨-٧١).

الضغينة والحقد والحسد، والغيبة والنميمة والكذب، وأنواع من البلايا والمحن، ونسأل الله العافية.

فالإنسان في حاجة أن يمقت نفسه في الله، يمقت من يعصي الله ﷻ، ويرجع إلى نفسه فيجد فيها المعاصي فيمقتها في ذات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يمقت العيوب التي فيها ولا يداريها، ولا يخفيها بداخله بل يسعى للتخلص منها، فهذا الذي علم من نفسه أمراضًا لابد وأن يتحمل ألم الضيق والشدة وهو يزيل هذا المرض، فلا يستسلم لإرضاء النفس؛ لأنه إذا لم يفعل ذلك ولم يجد هذا الألم فلن يجد السعة والراحة، فهذه القصة عجيبة جدًا، وأعجب منها بيان القرآن لها، وكيف أن هذا الذي وقع منهم هو إرشاد للمؤمنين إذا ما وقع منهم ذنب أو معصية أو مخالفة، وكيف يتوبوا لله من ذلك.

الحالة الإيمانية الثالثة:

ثم الحال الثالث: وهو قوله ﷻ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ وهذه هي قضية التوحيد، إيمان بأننا لا نجاة لنا

دار العلماء الراسخين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١٢١٠٠٤٦٤٦

ولا ملجأ ولا مهرب إلا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقضية الإيمان بالقضاء والقدر، و﴿ وَظَنُّوٓاْ ﴾ بمعنى: اعتقدوا وأيقنوا ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ﴾ أي: لجوء، فيتبين من هذا أن هناك عدو يريد أن يهلكك، هذا العدو هو من نفسك التي أمرتك بالسوء، وشيطانك، وأهل السوء من أهل الدنيا كالمنافقين وأصحاب السوء الذين يحرضون على الكذب، ويحرضون على مدح النفس بما ليس فيها، (ما علمناك أذنبت أبدًا)، (ما علمناك إلا صاحب طاعات، وأن لك الفضائل، وأنك كذا وكذا)، مع أنه يوشك أن يهلك، لكنهم لا ينصحونه (**فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك**).

قال رجلٌ لابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يا خير الناس، وابن خير الناس، فقال ابن عمر: «ما أنا بخير الناس، ولا ابن خير الناس، ولكني عبد من عباد الله عَزَّوَجَلَّ، أرجو الله عَزَّوَجَلَّ وأخافه، **والله لن تزالوا بالرجل حتى تهلكوه**».

وقال له رجل: لا نزال بخير ما أبقاك لنا الله، قال: «ثكلتك أمك، وما يدريك ما يغلق عليك من أخيك بابه».

وقال أحدهم: رأيت أثر الغم في وجه أبي عبد الله - يعني: الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ - وقد أثنى عليه شخص، وقيل له: جزاك الله عن الإسلام خيرًا، قال: «**بل جزى الله الإسلام عنا خيرًا، ومن أنا؟ وما أنا؟**».

وكان بكر بن عبد الله المزني رَحِمَهُ اللَّهُ إذا رأى شيخًا كبيرًا في السن، قال: هذا خير مني، عبد الله قبلي، وإذا رأى شابًا، قال: هذا خير مني، ارتكبت من الذنوب أكثر مما ارتكب.

ودخلوا على محمد بن واسع رَحِمَهُ اللَّهُ يعودونه وهو يقول: «ما يغني عني ما يقول الناس إذا أخذ بيدي ورجلي فألقيت في النار».

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يقول لجلسائه: «لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد أن يجلس إلي».

فضلًا عن المخالطين من أهل السوء من الكافرين (**لم يجعلك الله بدار هَوان ولا مَضْيَعة، فالحق بنا نُواسكَ**) فهؤلاء جميعًا أعداء والواجب عليك أن تفر منهم جميعًا؛ من نفسك الامارة بالسوء، ومن أصحاب السوء الذين لا يذكرونك

بعيوب نفسك، ويمدحونك بما ليس فيك، ومن الشياطين، وكل هؤلاء عداوتهم مقدرة من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فتكره كل هؤلاء الأعداء بداية من النفس الأمارة بالسوء، تكره عيوبها ونقائصها، وفي نفس الوقت تكره من لا ينصحك ومن يمدحك بما ليس فيك، وتكره من يأمرك بالمنكر وينهاك عن المعروف، ويحاول أن يبعدك عن إخوانك من أهل الإيمان، تكره كل هؤلاء وتوقن أنهم لن يكفهم عنك إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فأنت في معركة وأنت مطارد من هؤلاء الأعداء ولابد لك أن تلجأ إلي حصنٍ حصين ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ وهو شهود القدر بأن هؤلاء الأعداء كانوا أعداء بتقدير الله عَزَّوَجَلَّ.

فأنت تفر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أي: من عقوبته من أن يسلط عليك أعداءك من شياطين الإنس والجن، وأن يكلك إلى نفسك، لأنها هي أفعاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخذل من يشاء، ويضل من يشاء، يسلط عدو الإنسان عليه -الشيطان- فيتركه إلى شيطانه

يفعل به ما يشاء، ويتركه إلى نفسه الأمارة بالسوء تقوده، ويتركه إلى شهواته تأخذه بعيدًا عن طاعة ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وإذا كان النبي ﷺ ونفسه خير النفوس كثيرًا ما كان يقول ﷺ: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين»[1].

فرسول الله ﷺ يدعو ربه ألا يكله إلى نفسه طرفة عين، مع أن نفسه خير النفوس، فكيف بنفسك أنت؟ وكيف بشيطانك أنت؟

والنبي ﷺ قرينه أسلم، أعانه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليه فأسلم؛ كما ثبت عن عروة بن الزبير أنه قال: قالت عائشة زوج النبي ﷺ: «فقدت رسول الله ﷺ وكان معي على فراشي فوجدته ساجدًا راصًا عقبيه مستقبلًا بأطراف أصابعه القبلة فسمعته يقول: أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك وبك منك أثني عليك... فلما انصرف قال: «يا عائشة أخذك

(١) الطبراني في «الأوسط» (٣٥٦٥)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٤٠٥) من حديث ربيعة بن عامر، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: في «صحيح الجامع» (٥٨٢٠)

شـيطانك؟» فقلت: أما لك شـيطان؟ قال: «**ما من آدمي إلا له شيطان**» فقلت: وإياك يا رسول الله؟ قال: «**وإياي لكني أعانني الله عليه فأسلم**»[١].

وأما قرينك فما يزال تعرف منه الوساوس الكفرية والضلالية والعياذ بالله، فلا يأمرك إلا بالسوء والضلال والكفر والعصيان فتعـرف بذلك أنه مـا زال على الكفر والبدعـة والضلال، ولا ندري من منا قرينه أسـلم، فمن يجد في نفسـه وسـاوس الكفر والضلال يعلم أن قرينه لم يسلم بعد.

فنفـس النبي ﷺ لـو وكله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إليهـا طرفة عين -لحظة- لكان ذلك سببًا للضياع، وإذا كان شيطان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يجعله يشـك في يوم من الأيام (الوسوسـة) حين رد النبي ﷺ أبا جندل يوم الحديبية، فقال أبو جندل: أي معشـر المسلمين

(١) أخرجه الطحاوي في «المشـكل» (١/ ٣٠)، وابـن خزيمة (٦٥٤)، والحاكم (١/ ٢٢٨)، وعنـه البيهقي (٢/ ١١٦) عن سـعيد بن أبـي مريم: أنبأ يحيى بن أيـوب، ثنـي عُمارة بن غَزِيَّة قال: سـمعت أبا النضر يقول: سـمعت عُروة بن الزبير يقول: قالت عائشـة:... وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «فقه السيرة».

أرد إلى المشـركين وقد جئت مسـلمًا؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قـد عـذب عذابًا شـديدًا في الله، فقال عمـر بن الخطاب رَحِمَهُ اللَّهُ: **والله مـا شـككت منذ أسـلمت إلا يومئذ**، قـال: فأتيت النبي ﷺ، فقلت: ألسـت نبي الله حقًا؟ قال: «**بلى**» قال: قلت: ألسنا على الحق؟ وعدونا على الباطل؟ قال: «**بلى**» قلت: فلم نعطـى الدنية في ديننا؟ فقال: «**إني رسـول الله ولسـت أعصيه، وهـو ناصري**» قلت: أو لسـت كنـت تحدثنا أنا سـنأتي البيت فنطوف به؟ قـال: «**بلى، فأخبرتك أنك تأتيه العام؟**» قلت: لا، قال: «**فإنك آتيه ومطوف به**»[١]، فكيف بنا نحن ؟.

فلابد أن يلجأ العبد إلي ربه ﴿لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾؛ لأنه هو الذي يفعل، فهو الذي يعيذك من شـر نفسك، ومن سيئات أعمالك، وهو الذي يتركك إلى نفسـك ويكلك لها، وقد كان من أذكار الصباح والمساء ما قال رسول الله ﷺ لفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به؟!! أن تقولي إذا أصبحت**

(١) «مصنـف عبـد الـرزاق» (٩٧٢٠)، «المعجم الكبير» للطـبراني (١٦٤٤٥)، «دلائـل النبـوة للبيهقي» (٤/ ١٠٦)، قال شـعيب الأرنؤوط: حديث صحيح «صحيح ابن حبان» (٤٨٧٢).

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع

وإذا أمسيت: يا حيّ يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين»[1].

فلو علمت ذلك لعلمت مدى الحاجة إلى ألا يتركك الله عَزَّ وَجَلَّ إلي نفسك وأنك لابد وأن تلجأ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فـ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ يعني: شهود القدر ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ و﴿إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ يعني: شهود الشرع، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾: شهود العبادة والتوحيد العملي الإرادي، أنك تتوجه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وتفر منه إليه؛ لأنه ﴿لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾

فتفر من معصيته إلي طاعته، ومن أسباب العقوبة إلى أسباب الإكرام والثواب، وتفر من سخطه وعقابه - نعوذ بالله من سخطه وعقابه - إلي أسباب مرضاته وكرامته، وتفر من الانقياد لغيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى الانقياد له، وهذا هو تحقيق التوحيد؛ تحقيق معنى: (**لا اله إلا الله**).

فيستحضر العبد في لجوئه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هؤلاء الأعداء: عداوة الشيطان، وعداوة النفس الأمارة بالسوء

(١) رواه الحاكم (٢٠٠٠)، النسائي (١٠٣٣٠)، وحسنه الألباني «صحيح الجامع» (٥٨٢٠).

التي كانت سببًا للضيق، والتي ينبغي أن نمقتها في ذات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، نمقت العيوب والنقائص التي فيها، ونسعى للتخلص منها، واستخراجها، وعلاجها، ونستحضر كذلك عداوة قرناء السوء الذين لو تركنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إليهم، أو تركهم علينا لضعنا، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾ [النساء: ٩٠].

فلا ملجأ من الله عَزَّ وَجَلَّ إلا إليه، فلابد للعبد من أن يعلم ذلك، وأن يرتمي بهذه الطريقة عاجزًا، ضعيفًا، منكسرًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى معترفًا بذنبه، يشهد أن لا حول ولا قوة إلا بالله عَزَّ وَجَلَّ والتي هي كنز من كنوز الجنة[1] وهي قضية ﴿لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾.

(١) عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سفر، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أيها الناس: اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمًا ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، وهو معكم**» قال: وأنا خلفه، وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال: «**يا عبد الله ابن قيس، ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟**» فقلت: بلى، يا رسول الله، قال: «**قل: لا حول ولا قوة إلا بالله**» رواه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٤٨٧٣).

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١٢٠٠٤٦١٤٦

فالعبـد لا يملك لنفسـه تدبيـرًا، ولا يحسـن لهـا اختيارًا، فيجـري عليه أمـر الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يوفق لطاعتـه إلا من عنده عَزَّوَجَلَّ، فالعبـد لن يعمل بطاعته إلا بتوفيقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولن يعبده إلا بإعانتـه، فإذا علم العبد ذلك، وعمل به، يكون قد حقق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

فشـهود هذه المعاني هي كنوز الجنة؛ شـهود معاني العقيدة الصحيحة، ومعاني الإيمان، واسـتحضارها في القلوب، وهذا هو الذي وصل إليه الثلاثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾.

* * * *

ميلاد جديد للقلوب

هنا ولـدت القلوب مـن جديد، وحيت مـن جديد، وتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهـم بعـد هذه المـدة الطويلـة والتي بلغت خمسـين ليلة من الندم المتواصل والبكاء، فارقٌ كبير بين هذا الحـال وبين حال أحدنا إذا أذنب ذنبًا، فعلى الأكثر يظل دقيقة أو دقيقتين يستغفر الله عَزَّوَجَلَّ، وبعدها يظن أنه قد فعل ما ينبغي أن يفعل من معاني التوبة، ثم ينسـى هـذا الذنب ولا يفكر فيه مرة ثانية، فإذا تذكره حدثته نفسـه بأنه قد استغفر الله عَزَّوَجَلَّ منه، لماذا يتذكره في كل وقت؟ ولماذا يضايق نفسه بتذكره؟

لابـد وأن تتذكـره، وأن تكون في ألم وضيـق من فعله، كما كان من حال هؤلاء الثلاثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ وتلجأ إلـى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يغفر لك ذنبك، وأن يقيك شـر هذا الذنب، وأن يعافيك منه، فهذا الضيق مطلوب، لأن الفرح بالنفس والغرور بها، والفرح بالدنيا والركون إلى قرناء السـوء يضيع الإنسان أعظم ضياع.

دار الخلفاء الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات

فهذه الأحوال القلبية الإيمانية هي التي ذكرت في الآية الكريمة، فهي جمل معدودة الكلمات، ومع ذلك تجد فيها كنوزًا من تنقية النفس وتزكيتها وإصلاحها، والاهتمام بأحوال القلب الذي هو صلاح الإنسان، كما قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب**»[1].

ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأمر بتقواه، والتذكرة بالإيمان فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمعية الصادقين وصحبتهم، فالواجب أن تبحث عنهم، وأن تكن معهم، الصادقين قولًا وفعلًا، فالصدق ليس في الأقوال فقط، فالصدق كما يكون في الأقوال، كذلك يكون في الأفعال، ويكون كذلك في الأحوال، فالصدق يهدي إلي البر الذي هو العمل الصالح، كما في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل**

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٢٩٩٦)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا..»[1].

فهذا آخر ما تبين من فوائد هذه القصة العظيمة، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينفعنا بها في الدنيا والآخرة.

اللهم اجعلنا من الصادقين، واجعلنا مع الصادقين، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

* * * *

(١) سبق تخريجه.

دار الراشدين للنشر والتوزيع
إدارة المبيعات ٠١٢٢٠٠٠٦٤٦

الفهرس

ذكر القصة في القرآن ٦
ذكر كعب بن مالك لقصة الثلاثة ٧
وقفة مع كعب بن مالك رضي الله عنه ٢٣
فضائل الصحابة وآل البيت رضي الله عنهم ٢٩
قضية العمل الإسلامي ٣٦
منة الله في هداية العبد ٣٨
وقفة مع أسماء الله وصفاته ٤٦
الخوف من سوء الخاتمة ٥١
وقفة مع غزوة تبوك ٥٩
سبب تخلف كعب رضي الله عنه عن الغزوة ٦٤
خطورة التسويف في الأعمال الصالحة ٦٦
الندم من علامات صدق التوبة ٧١
حكم الاحتجاج بالقدر ٧٣
خطورة الإنشغال بالدنيا ٨٦
الذب عن عرض المسلم ٩٠
خطر النفاق والمنافقين ٩٦
التأسي بالصالحين ١٠٨
وقفة مع الهجر المشروع ١١١
مسألة في البيع والشراء مع الكافرين ١٢٥
توبة الله على كعب وصاحبيه رضي الله عنهم ١٣٢
حكم القيام للقادم ١٣٥
عظمة القرآن ١٤٢
أحوال إيمانية في قصة الثلاثة ١٤٥
ميلاد جديد للقلوب ١٧٣

دار الراشدي للنشر والتوزيع